صورة الاسلام والمسلمين في الأدب الغربي حتى القرن الثامن عشر

محمد عصفور

في الاجتماع السنوى الثانى والعشرين للجمعية الأمريكية الكاثوليكية التاريخية ، الذى عقد عام ١٩٤١ ، ألقى مارشال و . بولدوين ، بوصفه رئيس الجمعية ، خطابا جاء فيه قوله : ان الغرب ما عاد ينظر الى الاسلام باعتباره خطرا على الحضارة . وهو فى ذلك انما كان يصف وضعا حديثا كانت فيه البلاد الاسلامية كلها تقريبا تحت السيطرة الغربية . لذا فقد كان اختياره لموضوع مثل « الاتجاهات الغربية نحو الاسلام » فى تلك السنة بحاجة الى تبرير ، لأن العالم كان « مشغولا بأمور أشد خطرا من المذهب المحمدى . »(١) وقد ذكّر بولدوين مستمعيه بأن « العالم المسيحى ، أو أجزاء هامة منه

---

* تمتلىء الكتابات الغربية عن الاسلام والنبى بكثير من الافتراءات وسوء الفهم وسوء القصد . ومن حق المسلمين ان يعرفوا مايقال عنهم وعن دينهم وعن نبيهم ـ وهو الموضوع الذى يعالجه هذا المقال ـ التحرير .

1. Marshall W. Baldwin, „Western Attitudes toward Islam," The Catholic Historical Review, 28 (1942), 403.

على الأقل ، ظلت تواجه خطر عالم اسلامى معاد لفترة تقرب من الألف سنة تمتد من تاريخ وفاة النبى عام ٦٣٢ حتى تاريخ انهيار آخر هجوم عثمانى أمام فيينا عام ١٦٨٣ . » ثم أضاف « ان الاسلام كان الدين الوحيد الذى جاء عقب المسيحية وغنم منها مناطق شاسعة ، وكبدها هزائم عسكرية كبرى . »(٢)

اذن كانت النظرة التى نظر بها الغرب للشرق الاسلامى منذ البداية وحتى عام ١٦٨٣ ، أو ـ كما يفضل بعض المؤرخين (٣) ـ ١٦٩٩ ، سنة ابرام معاهدة كارلويتز ، نظرة عداء دفاعى فى البداية تحولت الى عداء هجومى فيما بعد. ان العداء يولد التحامل ، والتحامل يولد الجهل . لذا فان تلك الروح الخلاقة التى دفعت ، ابان قوتها وعنفوانها ، بالعرب البدو من صحرائهم ليشيدوا مدنية شاسعة خلال فترة مدهشة القصر ظلت غير مفهومة من قبل الغرب المسيحى . وأسباب عدم الفهم هذا ليست بعيدة المنال . فكما قال مريدث جونز : « استند المفهوم الغربى لمحمد وتعاليمه على المصادر الادبية لا على الملاحظة المباشرة الفعلية المسلمين . . . وقد استمد الكتاب من أمثال ماثيو باريس معلوماتهم من مصادر ثانوية مفمورة ، فكانت النتيجة مزيجا من قدر ضئيل من الحقيقة وقدر كبير من الخيالات ذات الصبغة المتحاملة جدا . » (٤) وقد جاء بهذه المصادر فى أغلبها المسيحيون الشرقيون الذين كانوا يهربون من أمام الجيوش الاسلامية المتقدمة فى كثير من الجبهات ، والذين كانت تمنعهم معتقداتهم الدينية من تصور صورة صحيحة عن الاسلام ، ناهيك عن نقل مثل تلك الصورة لمسيحيى الغرب . ثم انه لم يطل الأمر بالاسلام حتى بدأ يدق أبواب أوروبا نفسها ، ويؤسس موطىء قدم قوى هناك كان من المحتمل دائما أن يستعمله من أجل فتوحات أخرى . وعندما تفتتت قوة المسلمين فى اسبانيا ظهر خطر أعظم هو الخطر العثمانى الذى بدأ يهدد الغرب من جهته الشرقية . وفى تلك الأثناء كانت الحملة الصليبية الغربية لاستعادة بعض المناطق التى خسرتها المسيحية للاسلام قد فشلت فى أن تحقق الكثير سواء من الناحية العسكرية أو التبشيرية .

واضح اذن أن تاريخ الصلات بين الشرق المسلم والغرب المسيحى تاريخ ملأته العداوة المستديمة والشك المتبادل فى النوايا . لذا فان من غير المستغرب أن تكون الصورة التى كونها الغرب عن الاسلام والمسلمين صورة مشوهة لم تتضح معالمها الا ببطء شديد خلال القرنين الأخيرين مع تقدم الروح العلمية الحديثة وزوال التطرف الدينى . وأصول هذه الصورة تعود الى العصور الوسطى حين كان الاسلام هدفا للكثير من الكتابات الجدلية ، بينما ملأ المسلمون ـ تحت اسم السراسينيين قصص وملاحم تلك الفترة .

لقد ظلت استراتيجية المجادلين المسيحيين الذين تباينوا أشد التباين فى درجات معرفتهم بالاسلام هي نفسها حتى وقت متأخر نسبيا: كان همهم أن يفندوا الاسلام باستعمال عدد قليل من الانتقادات التقليدية ، دون الخوض بالمسائل الكبرى كمسألة الوحدانية ، وسبب ذلك نابع من طبيعة المشكلة . فكما يلاحظ نورمان دانييل فى دراسته الممتازة عن الموضوع: « ظلت النقاط التى يختلف فيها الاسلام مع

2. Ibid. 1

3. Paul Coles, **The Ottoman Impact on Europe** (New York : Harcourt, Brace, and World, 1998), p. 160.

4. C. Meredith Jones, „The Conventional Saracen of the Songs of Geste," **Speculum**, 17 (1942), 202.

المسيحية هى هى ، لذا فقد مال المسيحيون دائما الى أن يثيروا نفس الانتقادات . وحتى حين حاول بعض الكتاب في العصر الحديث نسبيا أن يتحرروا من الاتجاهات المسيحية فانهم ــ عموما ــ لم يحققوا من النجاح بقدر ما توهموا . » (٥)

ان بعض النقاط التى أثيرت ضد الاسلام يمكن ــ جدليا ــ أن نتوقعها من المسيحيين. فمثلا لا بد أن يؤدى ايمان المسيحى بألوهية يسوع الى انكار أى ادعاء بعكس ذلك . والاسلام لاينكر الوهية يسوع فحسب ، بل انه ينكر أنه صلب أيضا ، مما يجعل الفكرة المسيحية عن المخلص أو الفادى موضع شك بحد ذاتها . كذلك فان اعتماد المسيحية على التبشير سبيلا للانتشار يمكن ــ جدليا ــ أن تثار ضد الاسلام الذى لم يتنكب عن استعمال القوة لأسباب يحلو للمسيحيين اختزال الجانب الدينى منها . (لكن هنا جعلت المسيحية من نفسها عرضة لنفس الانتقاد حين لجأت الى الحملة الصليبية العسكرية لفترة تناهز القرنين .) كذلك فان الكنيسة التى فرضت العزوبية على رجالها تقليدا للسيد المسيح يمكن ــ جدليا ــ أن تعترض على سماح الاسلام لأى مسلم بالزواج من أربع نساء فى وقت واحد وعلى زواج النبى نفسه من أكثر من ذلك العدد .

لكن هذه النقاط وغيرها لم تكن الا جزءا يسيرا من الكتابات الجدلية ضد الاسلام التى بدأت بالظهور منذ العصور الوسطى . أما البقية فهي خليط عجيب من الحقائق والخيال، تفسر فيه الحقائق بشكل مغرض متوقع النتائج ، ويوجه الخيال فيه الى جمهور يبدو لنا اليوم مفرطا فى السذاجة .

واذا ما بدأنا بالجانب الذى يعتمد على بعض الأصول التاريخية وجدنا أن المجادلين من أمثال ماثيو بارس وسان پيدرو باسكوال وكتاب ما يدعى بـ « المجموعة الكلونية » (٦) مالوا لأن يأخذوا بعض الأحداث فى حياة محمد من أجل أن يشككوا بأهليته للنبوة . فقد شددوا على وثنيته قبل ادعائه النبوة مستندين ــ فيما يبدو ــ على رواية تقول انه فى شبابه قد ضحى بنعجة بيضاء للعزى . (٧) وأكدوا انه كان يعانى من الصرع ، وانه ادعى أن جبريل يزوره أثناء « النوبات » ليخفى مرضه. ورووا قصص زيجاته المتعددة باسهاب ، واستنتجوا منها أنه كان عبدا لحواسه (مما يتناقض مع روحانية المسيح) ، وأنه لذلك لا يصلح للنبوة ، وأنه كان دجالا لأنه لم يقم بعمل معجزات ، ولم يتنبأ بأحداث المستقبل مثلما فعل أنبياء التوراة .

كل هذه النقاط لها أصول تاريخية رغم أن تفسيرها غير صحيح فى كل الحالات ــ على الأقل من وجهة النظر الاسلامية . لنأخذ مسألة الصرع مثلا . ادعى محمد ، وآمن المسلمون ، أنه خلال تلك « الحالات » التى سموها نوبات صرع كان يتلقى الوحي . والشك فى ادعاء محمد وقبول التفسير المسيحى يقتضى الايمان بأن شخصا مصابا بالصرع يمكنه أن يؤلف **خلال النوبات** التى استمرت مدة طولها ثلاث وعشرون سنة كتابا كاملا له من الاتساق الفكرى والروعة الأسلوبية مايتصف

---

5. Norman Daniel, **Islam and the West** (Edinburgh : Edinburgh Univ. Press, 1960), p. 1.

للحصول على معلومات ببليوغرافية وافية انظر :

6. Daniej, pp. 3*b*5-408.

7. See Alfred Guillaume, **Islam** (Harmondsworth : Penguin Books, 1956), p. 8.

به القرآن الكريم . (٨) ولقد بين نورمان دانييل، وليس هو بالمسلم ، كيف أنه في بعض الحالات كانت توضع شروط معينة من قبل أولئك المجادلين (بشكل يعهده قراء الفلسفة المدرسية) يكون بمقتضاها الانسان مؤهلا للنبوة لكنها تناقض جوانب من حياة محمد ، مما يجعله غير أهل لها . (٩) يقول دانييل : « كل ما بدا للمسيحي كريها في الاسلام بدا له أيضا أنه أشد صفاته أهمية ، وقد كان من السهل وضع معايير تقاس بها كل النبوات وتفشل بها نبوة محمد . » (١٠) فقد أنكر محمد القدرة على عمل المعجزات والعلم بالغيب، فأعطى ذلك الفرصة للمجادل المسيحي لأن « يثبت » بطلان نبوة محمد ، وذلك بأن يشترط في النبي القدرة على عمل المعجزات وعلى التنبؤ بأحداث المستقبل ولما لم يقم محمد بأي من هذين الشرطين ، لذا فان نبوته باطلة. « من الواضح » ، كما يقول دانييل ، « أن هذه المعايير فصلت مقدما كي تناسب ظروف محمد . » (١١)

أما في جانب الخيال فقد أكد الكثير من الكتاب أن محمدا كان كردينالا مسيحيا طموحا اخترع الاسلام ، نتيجة عجزه عن الوصول الى كرسي البابوية ، كي ينفس به عن غيظه . وقد قيل عنه انه كان أحد أقانيم الثالوث الذي يضم ما هوند (أي محمد) وتيرماجنت (أو تير فاجنت) وأبوللين ، وهو الثالوث الذي قيل ان المسلمين يعبدونه نتيجة جهلهم . كذلك ادعى بعض الكتاب أن محمدا كان أحد أتباع هرطوق مسيحي يدعى سيرجيوس هرب من البلاد المسيحية الى شبه جزيرة العرب حيث ضلل العرب البدو بمعونة محمد واليهود المحليين. كما أنهم كثيرا ماروا أن النبي درب حمامة لتأكل الحب من أذنه مقلدة بذلك الروح القدس (١٢) ، أو أنه درب ثورا أو عجلا كي يأتيه عندما يأمره حاملا القرآن على قرنيه . (١٣)

يمكننا أن نستنتج اذن ، وبدون أي تجن ، أن مجادلي تلك الفترة لم يرسموا صورة متسقة للاسلام ونبيه ، وأن الصورة التي رسموها فعلا قاربت في الغالب جانب الاسفاف ومن الجدير بالذكر هنا أن القيمة الجدلية لكثير من تلك الكتابات تكاد تكون معدومة لأن أكثرها ، ان لم يكن كلها ، كتب باللاتينية وكان موجها الى جمهور القراء المسيحيين ، وعلى التحديد أولئك القادرين على قراءة اللغة اللاتينية، وهم الكهنة، لا الى جمهور المسلمين. لكن المعلومات التي تضمنتها تلك الكتابات ، سواء منها ما استند الى الحقيقة أو كان من نسج الخيال ، انتقلت هي والاتجاهات العدائية التي شجعتها عبر لاتينية الكتاب العالية الى اللغات المحكية المحلية ، وغدت جزءا من

لمن شاء الاستزادة حول هذه النقطة ، هناك كتاب :

8. Tor Andre, **Mohammed : The Man and His Faith**, trans. Theophil Menzel (New York : Harper Torchbooks, 1960), pp. 45-47.

9. Daniel, pp. 97-73.

10. Ibid., p. 68.

11. Ibid., p. 71.

ظلت هذه الفكرة تتردد حتى زمان شيكسبير . انظر :

12. **I Henry VI**, I.ii. 140-11.

بل انها تظهر بعد ذلك التاريخ كما سنرى .

13. See Byron Portes Smith's **Islamin English Literature** (Beirut : The American Press, 1939), pp. 6-7.

الصورة الأوروبية الشائعة عن الاسلام والمسلمين ، تلك الصورة التى ظلت على ما هي عليه لفترة طويلة لاحقة . وكما قال ميريدث جونز : « كان مفهوم شعراء العصور الوسطى عن الاسلام يستند على المصادر الكنسية التى كان من همها أن تشوه معتقدات الكفار وعاداتهم . » (١٤) وقد تكررت صورة السراسينى الكافر المشوهة تكررا بلغ من كثرته في الأغانى الشعبية فى العصور الوسطى أنه أدى الى تحنط تلك الصورة وتجمدها . لذا فان كتاب الملاحم فى ذلك العصر وجدوا ، عندما أرادوا الكتابة عن السراسينى ، صورة مألوفة يستعملونها وصورة متوقعة يرسمونها لقرائهم . وقد وصف جونز هذه الصورة التقليدية للسراسينى كما رسمتها مجموعات « **الشانسون دى جيست** » على النحو التالى:

(السراسينيون) قوم أشرار يقضون أيامهم فى كراهية المسيح والسخرية منه وفى تهديم كنائسه . وهم أبناء صانع كل الشرور ، أبناء الشيطان . وهم ، كسلفهم ، يكرهون الله ويضعون أنفسهم دائما تحت حماية الشيطان . . وغالبا ما يوصفون بهيئات شائهة التكوين ، فالكثير منهم عمالقة ، وقبائل برمتها لها قرون على رؤوسها ، بينما توجد قبائل سواها سوداء كالشياطين . وحين يهرعون للمعارك يطلقون صيحات أشبه بنباح الكلاب . وهم أناس مشبوبو العاطفة ، سريعو الاستثارة ، سرعان ما تسيل دموعهم أو يتملكهم الغضب. أما من الناحية الاجتماعية فانهم يمثلون أبشع أنواع العادات ، وذلك ببساطة لأنهم يفتقدون الشيء الأساسى فى نظر المسيحيين للكمال ـ الايمان بالمسيحية . لذا فانهم يستعملون العبيد ، ويأكلون أسراهم ، ويشترون نساءهم ويبيعونهن ، ويمارسون تعدد الزوجات . . . وقد اخترع الشعراء لهم عددا من الصفات التحقيرية والتعابير المهنية هي من عدة الأسلوب الملحمى المعتادة كي يؤكدوا فقدانهم للايمان ، الذى هو سر شرهم برمته . (١٥)

أما الاسلام فيوصف عادة باعتباره من اختراع محمد الذى هو أحد أقانيم الثالوث

---

14. Jones, p. 203.

15. Ibid., pp. 204-5.

اما الكاتب صموئيل سى . تشو فقد استنسخ رسما اليزابيثيا عنوانه « اشكال وحشية توجد بين افريقيا والهند » . وهى منطقة تشمل معظم العالم الاسلامى ، تظهر فيها خمسة اشكال من الرجال الذين يوجدون فى تلك المنطقة : الاول يدعى Sciapod وله قدم واحدة يستعملها كمظلة ، والثانى له عين واحدة فى جبينه ، والثالث قزم براسين ، والرابع توجد عيناه وانفه فى صدره ، والخامس له راس كلب فوق كتفيه . والرسم المذكور يظهر فى مقابل الصفحة ١٣ من كتاب :

Samuel C. Chew, The Crescent and the Rose (New York : Oxford Univ. Press, 1937),

وفكرة الاشكال الوحشية هذه موجودة ـ بشكل مدهش ـ حتى عند درايدن . انظر :
Don Sebastian, II. i. 458 وفى عام ١٧٣٨ شعر الرحالة الانكليزى توماس شو
Thomas Shaw ان من الضرورى ان يبدد مخاوف قراء كتابه المعنون
Travels.....to several Parts of Barbary and the Levant

فيما يتعلق بالفكرة السائدة التى تقول ان افريقيا كانت مليئة بالتوحشين . انظر ايضا :
Wallace Cable Brown, „The Popularity of English Travel Books about he Near East, 1775-1825," PQ, 15 (1936), 70-71.

الذى ذكرناه ، وهو يرئس هيئة كبيرة من الآلهة الأقل شانا مثل جوبيتر ، وجوبين ، وأفلاطون ، وفرعون ، وباراتون ، وكاهو ، ومارغوت ، ومالاكوين ، وسوراب ، وبايلت، ويعلزبوب ، وغيرهم . ويوصف المسلمون بأنهم قوم ذوو كهنوت منظم يرئسه بابا ، وتقام عندهم الصلوات فى محمديات (أى جوامع) أو معابد من قبل رهبان أو كهنة بشكل شبيه بالطقوس المسيحية . (١٦) وباختصار ، فان الاسلام يرى بمنظار مسيحى (ثالوث ، رهبان) بفرض اظهاره وكأنه تشويه للمسيحية .

ان صورة محمد والمسلمين في **الكوميديا الالهية** لدانتى تنسجم مع هذه النظرة . ففى **الجحيم** نجد كلا من محمد وعلى ، ابن عم الرسول ، بين ناثرى بذور الخلاف والفضائح والشقاق (٢٨ : ٣٥) فى موقع عميق فى الدائرة التاسعة من دوائر الجحيم . والعقاب الذى يلقاه محمد على جريمته « ليس فقط أشد فظاعة وتشنيعا من أى عقاب غيره ، بل انه لا مثيل له فى أى مكان آخر من **الجحيم** من حيث التنفير والتشويه الجسمانى وقبح التصوير . » (١٧) وتصوير محمد باعتباره منشقا يستند بوضوح على الادعاء المسيحى بانه تلقى العلم من هرطوق مسيحى ، أو أن محمدا نفسه كان كردينالا فاشلا كما مر بنا . (١٨) وبهذا الاعتبار تبدو جريمته أعظم من جريمة الوثنى العادى . فهو ، كمسيحي منشق ، كان يسبب صدعا فى هيكل الكنيسة المسيحية بهرطقته (وقد اعتبر الاسلام فعلا بدعة نسطورية) . وعلى أى حال فان نظرة دانتى لما حققه محمد واتباعه هي النظرة نفسها التى يقبلها المؤرخون المسيحيون فى زمانه . فمثلما يتضح من **الفردوس** (٣٢ : ١٣٠ ـ ١٣٥) حيث «يرمز كسر أرضية عربة الكنيسة من قبل الوحش الى الخسارة التى أصابت الكنيسة عن طريق محمد » كما يقول تاتلوك(١٩) يعتقد دانتى أن العالم المسيحى قد خسر خسائر فادحة للاسلام ، وان العقوبة الفظيعة التى يفرضها على محمد تعكس فظاعة الجريمة التى ارتكبها من وجهة النظر المسيحية .

لكن تجدر الاشارة هنا الى أن دانتى قد وضع ثلاثة من المسلمين البارزين هم ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين الأيوبى في دائرة الجحيم الأولى مع الوثنيين الفضلاء . وقد كان الأولان فيلسوفين من أتباع المدرسة الأرسطية ، ووضعهما فى الدائرة الأولى يبدو لي اعترافا بقيمة أرسطاليتهما أكثر مما هو تسامح مع دينهما . أما ادراج صلاح الدين

---

16. Jones, pp. 208-10.

وفكرة الكنيسة والرهبان توجد حتى فى درايدن . انظرمسرحية Don Sebastian حيث يدعى المفتى رجل كنيسة . ان الاسلام ـ طبعا ـ لا يضم اى مؤسسة شبيهةبالكنيسة المسيحية .

17. J.S.P. Tatlock, ,,Mohammed and His Followers in Dante,"MLR, 27(1932), 192.

يخالف تاتلوك هذا الراى . لكن من يشاء الاطلاع علىدراسة ممتعة للعلاقة بين الاسلام والكوميديا الالهية فان عليه قراءة كتاب :

18. Mignel Asian Y Palacios,
Islam and the Divine Comedy, trans. Harold Sunderland (1928 ; pt. London : Frank Case, 1968).

19. Tatlock, p. 186.

مع هذه النخبة فيبدو أعيا على التفسير . فلقد كان صلاح الدين هو البطل الاسلامي الذى دافع عن قضية الاسلام عندما كان الغـــرب المسيحى يحاول استعادة بعض الأرضية التى خسرها للدين الجديد . لذا كان من المنطقى أن يوضع صلاح الدين عميقا فى جحيم دانتى لا مع الوثنيين الفضلاء . لكن دوروثى ل . سايرز Sayers تفسر ذلك بقولها : « أن ادراج صلاح الدين هنا (فى الدائرة الاولى) مع لوقان وابن رشد وغيرهما من شخصيات الحقبة المسيحية ممن لم يحرموا من فرصة الاختيار لربما أشار ضمنا الي رأى دانتى بشأن كل أولئك الذين كانوا صادقين فى عدم استطاعتهم قبول الوحى المسيحى رغم اتصالهم بالمسيحية ، ورغم ممارستهم لكل الفضـــائل الأخلاقية . » (٢٠) وسواء قبلنا هذا التفسير أم لم نقبله فان من اللافت للنظر أن شخصية صلاح الدين قد عوملت دائما بقدر من الاحترام فى الأدب الغربى لم تلقه أية شخصية اسلامية أخرى . (٢١)

يشبه المفهوم الـذى ســاد فــي الادب الانكليزى حتى اوائل القرن الثامن عشر عــن محمد والمسلمين ذلك المفهوم الذى وجدناه في سائر أوروبا . ففي الحكايات الشعبية الانكليزية القديمة المسلسلات المسرحية (Cyclical Plays) يظهر السراسينيون دائما كوثنيين لهم اله اســمه محمد هو واحد من عدد مــن الآلهة . وهذا أمر متوقع طبعا لان ذلك المفهوم كان جزءا من التراث الاوروبي ، ولان الادب الانكليزى المبكر كان مقلدا الى حد كبير للادب الفرنسي الاكثر ازدهارا . (٢٢)

لكن الغريب ان كلمة سراسين غالبا ما استعملت لتضم عناصر اوروبية كالسكسون ، بل انها عنت أى شعب وثني . وقد كان من السهل بعد ذلك ان يعتقد مؤلفو ذلك الادب وقراؤهم ان محمدا كان معبود جميع الوثنيين بغض النظر على التسلسل التاريخي او البعد الجغرافي . وهكذا فاننا نجد فرعونا في واحدة من المسرحيات الدينية الانكليزية يحض اتباعه للصلاة لما هوند (محمد) كـي يعينهـم فـي محنتهم . ونجد القيصر اغسطس يقسم بنفس الاله ويصلي له ، بينما يدافع هيرود عنه ويهدد كل من لا يؤمن به . (٢٣) والمعنى الحديـث للكلمة الانكليزية Maumet ، اى صنم او دمية ، تعود جذوره الى هذه الحقبـة التاريخيـة . والكلمة مستمدة طبعا من اسم النبى محمد ، وفكرة انه كان يعبد ادت الى فكرة انه كـان صـنما ، ومن هـذا المعنى تفـرعت المعـاني

---

20. Dorothy L. Sayers, trans., **The Comedy of Dante Alighieri : Cantica I: Hell** (Baltimore: Penguin Books, 1919), p. 96.

21. **The Talisman** انظر مثلا رواية للسير والتر سكوت التى نشرت لاول مرة عام ١٩٢٥ .

حول تقليد الادب الايكليزى المبكر للادب الفرنسى انظر:

22. Albert C. Baugh et al., **A Literary History of England**, 2nd ed. (New York : Appleton-Century Crofts, 1967), p. 114.

23. See Chew, pp. 390-91. Chew refers to the **York Plays**, xix; **The Townley Plays**, ix, xiv, xvi ; and the **Chester Plays**, i, viii, x.

الاخرى . وقد اعطت هذه الكلمة للغةالانكليزية الكلمتين mahometry و mawmetry اللتين تعنيان « عبادة الاوثان » او « الدين الباطل » . وقد ظل هذا المعنى مستعملا حتى أواخرالقرن الخامس عشر ، بدليل وروده فى قصيـــدة لكاكستون بعنوان خود فرى (God Frey) (١٨٧ : ٢٧٤) . اما قصيدة جون لدجيـت المسماة « عن محمد النبى المزيف وكيف اكلته الخنازير وهو سكران » فتعطينا اول « ترجمة كاملة » للنبى في الادب الانكليزى . ففي مدى مائة واحد عشر بيتا تمكن لدجيت من حشر معظم الاساطير الخيالية التى كانت سائدة في زمانه (١٣٧٠ ـ ١٤٥١) . اذ تصور القصيدة النبى على انه كان نبيا مزيفا وساحرا وضيع الاصل ، وانه درس الكتاب المقدس في مصر واقنع السيدة كارديجان (خديجة ؟) من بلاد كوروزان (قريضة ؟) كى ترضى به زوجا ، مستعملا اســـاليب الاغـراء الخبيثة المزيفـة (الابيات ٦٧ ـ ٦٩) . ونقرأ كيف انه ، ادعى انه هو المسيح (٧٥) وقاد شعبه الى الخطأ العظيم . ونقرأ انه كان مصابا بالصرع ، ذلك الداء الذى فسره بقوله ان « جبريل / قـد ارسل اليه من علياء السماء / من قبل الروح القدس كي يعلمه / وظهر عليه الملاك بطلعة بلغ من بهائها/انه لم يستطع الوقوف في حضرته» (٨٧ ـ ٩١) . كذلك تجد في هذه القصيدةـ كما هو متوقع ـ اساطير الحمامة التي تأكـل الحب من اذن محمد ، وسيرجيوس ، والثور، لكن الثور هذه المرة لا يحمل القرآن على قرنيه بل يحمل « جرار اللبن والعسل » (١٠٤) . كما نجد ان محمدا كان « زانيا وقحا / فاشاد تمثالا لفينوس » (١٣٢ ـ ١٣٣) . ورغم انه كان سكيرا الا أنه منع قومه من شرب الخمرة. واخيرا

مات كأى انسان نهم

لانه افرط في شرب الخمرة

ووقع في بركة موحلة واكلته الخنازير .

(٢٤)

(١٥٢ ـ ١٥٤)

ولعل هذه في نظر لدجيت وقرائه هي الاسباب التي جعلت الاسلام يحرم الخمـرة ولحم الخنزير !

●●●

اذا ما وصلنا الفترة الاليزابيثة وجدنا الكثير من المسرحيات التي تقوم على مواضيع اسلامية استمدها الكتاب من كتب التاريـخ القديمة والحديثة للشعوب الاسلامية ، فضلا عن الاساطير التي تجمعت فـي اوروبـا عـن الاسلام والمسلمين منذ العصور الوسطي . وقد قام لويس وان باستعراض مفيد للمسرحيات الاليزابيثية المرتكزة كلا او بعضا على مواضيع شرقية . (٢٥) ووجد انه بين عام ١٥٥٨وعام ١٦٤٢ هناك سبع واربعون مسرحية تعتمدعلى مثل تلك المواضيع كتب اكثرها في الفترة ما بين ١٥٨٦ و ١٦١١ . وقد انجـذب اكثـر الكتاب الكبار الى سحر الشرق انجذابا دعا كلا منهم الى كتابه مسرحية واحدة على الاقل عن هذه المنطقة . ومن اللافت للنظر ، كمـا

24. See John Lydgate,s **Fall of Princes**, ed. Henry Bergen (London : EETS, Extra Ser., no, 123, 1924), Pt. III, Bk. IX, pp. 920-23.

25. Lewis Wann, „The Oriental in Elizabethan Drama," MP, 12 (1915), 423-47.

يقول وان ، نجد ان « ثلثي هذه المسرحيات الشرقية مأساوية الطابع . » وان « كل المسرحيات التي تعالج موضوعات شرقية خالصة هي اماتراجيديات خالصة او مسرحيات غزاة . » (٢٦) والتفسير الذى يقدمه وان لهذه الظاهرة هو ان الاليزابيثيين ـ فيما يبدو ـ قد تصوروا الشرق باعتباره « منطقة تسود فيها عناصر الحرب والغزو وقتل الاخ لاخيه والشهوة والخديعة اكثر من سيادتها في البلاد المجاورة » ـ وهو تصور يدعي وان « ان الاحداث الواقعية تبرره . » (٢٧)

واضح من ذلك ان كتابات المسرحيين الاليزابيثيين لم يكونوا يهتمون الا بالعناصر المثيرة ، وانهم اغفلوا الجوانب المشرفة ، لانها لم تكن تلائم طبيعة الاسلوب الادبى المستعمل، وهو اسلوب يفضل ، كما يوحى اسمه ، كل ما هو دراماتيكي .

لكن الملاحظ ـ حتى من دراسة وان نفسها ـ ان الدراماتيكي قد قبل على انه كل الحقيقة . وهكذا فان كلمة « تركي » ، وهي الكلمة التي كانت تستعمل في اوروبا اسما لكل مسلم ، ولم تكن تستثير فى ذهن مستعملها او سامعها اكثر من صورة للقسوة والعداء للمسيحية . وكان « الاستتراك » (to turn Turk) يعني العار الاكثر بالنسبة لأي مسيحي ، لأن ذلك كان يعني فقد كل الاخلاق والدين .

لقد كان الأتراك قساة حقا ، وغالبا ما استعملت قسوتهم بينهم هم أنفسهم (كما هي الحال فى المكائد التي كانت تحصل فى قصور السلاطين ، وهي الأمور التي مسرحت كثيراً على المسرح الاليزابيثي) ، الا أن هذه الصفة ، كما يقول لنا المؤرخون المعاصرون ، صفة بولغ فيها جدا ، وشيعتها الروايات الأوروبية من أجل تحريض القوى المسيحية لمقاومة تلك القوة الكاسحة. فكما يقول المؤرخ **بول كولز** : « كلما اتجهنا غربا فى مناطق المجتمع الأوروبي النائية زاد ظهور العثمانيين كمصدر للكراهية والخوف .

لقد كان الناس يعتقدون أن الأتراك ليسوا خارج حدود المسيحية فقط بل خارج حدود المدنية نفسها » . ويضيف كولز : « ان التقليد (القاضي بالتشهير بالاتراك) استمر وامتد الى عامة الناس خلال القرن السادس عشر عن طريق الحرب الدعائية الفجة التي شنها بارثولوميو جيورفتش الكرواتي ، الذى ظهر كتابه ذائع الصيت **آلام ومآسي المسيحيين الذين يعانون من الجزية والعبودية التركيتين** عام ١٥٤٤ وطبع طبعات كثيرة وبلغات متعددة.»(٢٨) وسواء عرف الكتاب المسرحيون أو كان باستطاعتهم أن يعرفوا أن الأتراك كانوا يتسامحون مع المسيحيين واليهود وانهم كانوا، لأسباب اقتصادية على الأقل ، يستقبلون من قبل قطاعات كبيرة من الشعوب البلقانية كمحررين من جور الاقطاعيين المحليين(٢٩) فان ذلك لا يهمنا كثيرا هنا . ان ما يهمنا هو أن الصورة التي رسموها عن الأتراك كانت ، فى

26. Ibid., 428-29.

27. Ibid.

28. Coles, **Ottoman Impact**, pp. 145-47.

29. Ibid., p. 145.

اقل ما يقال عنها ، هي الصورة التقليدية الجامدة التى اخترعها الأوروبيون . وهذا الوضع يشبه الى حد بعيد صورة السراسيني التي ظهرت فى أقاصيص العصور الوسطى : كان الناس يتوقعون صورة معينة فقدمت لهم تلك الصورة .

عندما كتب كرستوفر مارلو مسرحية **تيمورلنك الكبير** (الجزء الاول عام ١٥٨٧/ ١٥٨٨ والجزء الثاني عام ١٥٨٨) كان الخطر الاسلامي ، أى التركي ، قد بلغ ذروته . ولهذا السبب كان من الطبيعي أن يرحب المسيحيون بأي شيء يمكن أن يريهم أن الأتراك لم يكونوا قوة لا تغلب . وهذا يعني أن **مارلو** باختياره قصة تيمورلنك كان يستغل العاطفة الشعبية السائدة . فتيمورلنك لم يخضع الأتراك ويذل سلطانهم بايزيد فقط ، بل انه كان ـ عن غير قصد منه ـ عونا غير مباشر للمسيحيين المحاصرين في القسطنطينية منذ فترة طويلة . وقد اضطر مارلو ، من أجل التركيز على هذه النقطة ، أن يخالف التاريخ الحقيقي ويخلق شخصية يمكن للمسيحيين أن يقبلوها على انها سوط الله المسلط على المسلمين . وهكذا تحول تيمورلنك المسلم ، الذي يقول لنا التاريخ انه كان متساهلا مع أعدائه المسلمين وقاسيا أشد القسوة ضد المسيحيين ، تحول (باستثناء بعض التناقضات فى تصوير شخصيته) الى بطل شبه وثني ، واسع الاطلاع على الكتابات الكلاسيكية والديانة اليونانية والرومانية ، والى قاهر لا يرحم أعداءه المسلمين ، بينما يميل بشكل يصعب تفسيره للاستجابة الى آمال المسيحيين وطموحاتهم . ففي الجزء الأول ، مثلا ، يقسم تيمورلنك أن« يخضع الأتراك ويحرر الأسرى المسيحيين » الذين كانوا يستعملون لتسيير سفن القراصنة المسلمين . (٣٠) وفى الجزء الثاني يطالب مواطنو بابل حاكمهم عندما تهدد قوات تيمورلنك المدينة أن :

يستسلم ويرفع علم الهدنة

كي يشفق علينا تيمورلنك

ويعاملنا معاملة الفاتح الحدوب

ورغم أن هذا اليوم هو آخر أيام حصاره المخيف ،

وهو يوم توعد بعده ألا يبقي رجلا أو طفلا ،

لكن عندنا بعض المسيحيين من جورجيا وهم سيحصلون على عفوه ان تكرمت بارسالهم له

لأنه دائما كان يشفق عليهم ويعينهم في مصابهم .

(جـ ٢ ، ف ٥ ، م ١ ، ٢٦ ـ ٣٣)

وعندما يقارن تيمورلنك محرر المسيحيين مع الحكام المسلمين الذين يحاربونهم (كما يفعل بايزيد) ويستعملونهم عبيدا لتسيير سفنهم (كما يذكرنا مارلو عدة مرات فى سياق جزأي مسرحيته) فان عواطف المشاهدين ستميل

30. 1 **Tamburalaine the Great, III.** iii. 46-47.

All quotations from this play are from U. M. Ellis-Fermor's edition (London : Methuen, (1930) which is part is of the **Works**, ed, R, H. Case See also Pt. 1, III, iii, 248-51,

حتما الى تيمورلنك رغم قسوته التي لاترحم والتي يظل شعور مارلو نحوها شعورا غامضا صعب التحديد . كذلك يجب الا ننسى ان انتصارات تيمورلنك كلها تحققت ضد المسلمين مما يسهل على جمهور النظارة والمسيحيين ان يتقبلوه ويعدوه فى صفهم .

غير أن من الغريب أن نجد تيمورلنك بعد ذلك كله يقسم بمحمد فى الجزء الثاني من المسرحية . فان كان علينا أن نفترض أنه مسلم منذ البداية (كما كانت مصادر مارلو ستقول له) فان حماسه لقضية المسيحيين يعتبر تناقضا فى شخصيته . لكن الأقرب الى الصواب هو أن هناك القليل القليل من الاسلام عند أي من الشخصيات المسلمة فى المسرحية باستثناء اشارة عابرة لمحمد هنا وهناك، ضمن قسم فى العادة . وجميع هذه الشخصيات الاسلامية تبدي معرفة أوسع **باوفيد** من معرفتها بالقرآن . (٣١) زد على ذلك أن هدف مارلو كان سيتزعزع لو أنه ترك تيمورلنك يحتفظ بدينه ، لان ذلك كان سيناقض مهمته في الوقوف ضد الاسلام ، وهذه نقطة تؤكدها انتصارات تيمورلنك الساحقة ضد الأتراك وحلفائهم ، مثلما يؤكدها تكرر ذلك التعبير كثيرا خلال المسرحية كلها . ولهذا فان مما ينسجم وهدف المسرحية العام أن يندد تيمورلنك بمحمد وأن يحرق «القرآن التركي» الذى تعبر بعض الشخصيات عن ايمان مهزوز به هنا وهناك فى المسرحية . ويأتي هذا التنديد في الخطبة الشهيرة في المشهد الأول من الفصل الخامس ، وهي الخطبة التي جلبت على مارلو فيما بعد تهمة الالحاد . وعلى أي حال فان لغة الخطبة العنيفة لا بد أنها راقت للجمهور الذي كان يتمنى سقوط « خطر » الاسلام ممثلا بالامبراطورية التركية فى ذلك العهد .

ولئن كانت مسرحية **تيمورلنك** مثلا جيدا على ما يدعوه **لويس وان** بمسرحيات الغزاة ، وهي مسرحية ظهرت فيها أربعة موضوعات على الأقل من الموضوعات التي يعتقد **وان** انها تشكل بمجموعها المفهوم الاليزابيثي عن الشرق (الا وهي موضوعات الحرب ، والغزو ، وقتل الأخ لأخيه ، والخيانة) فان مسرحية فيليب **المرتد** (١٦٢٤) مثل جيد على الموضوعة الخامسة : الا وهي الشهوة . والمسرحية تتضمن مقابلة أساسية بين مايزعمونه عن الطهارة المسيحية والحسية الاسلامية . وتتمثل هذه المقابلة بأجلى صورها فى شخصيتي بولينا ودونوسا . أما بولينا فهى أسيرة عصام بك . واستسلامها لرغبات آسرها من شأنه أن يعطيها الحرية والسلطات . الا أنها ترفض الاستسلام لأن « عفافها مرتكز على صخرة دينها . » (٣٢) اما

ان اعتراض جوزيف اديسون ضد الاشارات الاوفيدية التى يضعها درايدن فى افواه شخصياته المسلمة فى مسرحية Don Sebastian ، والذى نشره فى صحيفة The Guardian ، العدد ١١٠ ، الصادر بتاريخ ١٧ تموز عام ١٧١٣ لهو احرى بان يثار ضد مسرحية Tamburlaine لمارلو لان مثل هذه الاشارات ترد فيها اكثر مما ترد فى مسرحية درايدن

32. The Dramatic Works of Massinger and Ford, ed. Hartley Coleridge (London : Routlcdge &Sons, 1875), p. 115.

ستكون الاشارات التالية للصفحات وليس للفصول والمشاهد لان ابيات المسرحية غير مرقمة ، وسترد الاشارات فى المتن نفسه بعد كل اقتباس .

دونوسا فهي أميرة مسلمة ، لكن مركزها هذا لا يمنعها من استغلالها أول فرصة تسنح لها مع بائع عادى للاوانى الزجاجية لاشباع رغبتها الجنسية . وتفسير هذا التهور عند الأمير يأتينا من فم الأميرة نفسها : فخلافا لحالة السيدات المسيحيات « اللواتي يتمتعن بقدر أكبر من الحرية ممن يولدن هنا » ، تقول دونوسا :

نحن معشر العثمانيات لا نستمتع

أكثر منكن رغم أن ديننا

يسمح بكل الملذات (ص ١٠١) .

المسلمات ممنوعات من المتع رغم أن الاسلام ـ فيما تقول هذه الاميرة المسلمة ـ يسمح بكل الملذات . ان هذه الفكرة ليست بالجديدة . فلطالما اعتبر مسيحيو الغرب الاسلام دينا اباحيا . وقد اعتبرت هذه الاباحية واحدا من اهم أسباب نجاح الاسلام فى أوائل عهده ، لكن الشىء المدهش فى دونوسا ليس علمها بأمور دينها بقدر ما هو استعدادها للتضحية بمكانتها كأميرة وتصرفها تصرف المومسات ، بالمعنى الحرفى للكلمة . انها ليست قبيحة : فيتللي نفسه يشهد بالعكس . لكنها رغم جمالها تقوم بكل مقدمات الاغراء على المسرح :

سأعلمك بالغريزة (ماذا تقدم)

وبتلك السهولة التي يجعلنى الحب أطلبها منك .

عندما تقوم سيدة باعتصار يدك هكذا ،

أو عندما تضغط على قدمك بلمسة عاشقة ،

وتحدق فى عينيك ، وتداعب خصلات شعرك ،

ألا تفهم ، حتى بدون عون المعلم ،

ماذا تطلب منك ؟

ثم تقبله فيستجيب ، وتعود هى الى القول :

وافرض أنها تشير الى

حجرة خاصة لا تدخلها أشعة الشمس أبدا ... (ص ١٠٦) .

وتترك المسرح وهى « تدعوه كي يتبع » فيما تقول تعليمات المؤلف (ص ١٠٨) . كذلك فان دونوسا هي التى تطلب « لقاء ثانيا » (ص ١٠٨) في اليوم التالى ، بينما يرفض فيتللي طلبها . ورغم اللغة القاسية التي يستعملها معها الى أنها تستمر فى الاستجداء ، بل انها تركع له في النهاية :

هل أنت من حجر ؟

ان كان للمسيحيين أمهات فلا شك أن

فيهن من شراسة النمور نصيب . فلو كان عندك شىء من الشفقة الانسانية لما تحملت

أن تركع أميرة لك ... (ص ١١٣) .

تلك هي شهوة المسلمين !

أما في جانب الذكور من أشخاص المسرحية فان قدرة فيتللي على احتمال الآلام تكسب له اعجاب عصام بك ، بل حتى احترام مصطفى القاسى ، الذى هو غريمه فى الحب . لكن غرام عصام بك المفرط ببولينا هو الذى يؤدى فى النهاية الى هرب المسيحيين من الاسر . فعصام المسكين هذا ـ شأنه شأن غيره من المغرمين المسلمين ـ سرعان ما يخدع بوعد من المعشوقة بولينا بأن « تتحول الى تركية » (أى تسلم) وتعطيه ما يريد شريطة أن يسمح لها بتعذيب دونوسا المجرمة وبمصادرة

مجوهراتها . لكنها ـ بطبيعة الحال ـ تستغل هذه الفرصة كي ترسل وسيلة الهرب لفيتللي ودونوسا بعد أن تكون هذه الاخيرة قد اعتنقت المسيحية .

ان المشهد الذى تتحول فيه دونوسا من الاسلام الى المسيحية يستحق بعض النظر هنا ، لا لما يتمتع به من قيمة فنية (وهو فى الواقع خلو منها) بل لما يلقيه من ضوء على أفكار القرن السابع عشر عن الاسلام ، التي ظلت هي فى الواقع أفكار العصور الوسطى . تحاول دونوسا فى هذا المشهد ، مثلما نذكر ، كي تخلص نفسها من فضيحة الزنا ، أن تكسب فيتللي للاسلام ، الذى يقال لنا ان فيه حكما شرعيا يسمح للمرأة المسلمة بالزنا مع كافر اذا تمكنت بهذه الطريقة من كسبه للاسلام . هذه فرية سخيفة بطبيعة الحال ، لكن طريقة الاقناع أسخف . فدونوسا تحاول اقناع فيتللي بصدق الاسلام عن طريقين الاولى هي أنه بينما تقتضى المسيحية من المسيحى أن يظل « حذرا » ، « فطنا » ازاء اغراءات الدنيا ، فان الاسلام ، على العكس من ذلك ، يوفر الفرصة « للتنويع ، ولاختيار كل الملذات التي يستطيع البشر ممارستها » (وهنا لابد أن نلاحظ كيف أن دونوسا بهذه الفكرة تفتح المجال لاثبات أفضلية المسيحية على الاسلام) . والثانية هي أنه مادام الاسلام مزدهرا والمسيحية ضعيفة فانه لابد أن يكون الله فى صف الاسلام ، لذا فلا مفر من أن يعترف فيتللي بأن معبوده « يحتاج الى القوة اللازمة لمساعدة » المسيحيين (ص ١١٧) . أما رد فيتللي « المفحم » فهو هذا :

لن الوث فمي بالكلام عن شعوذات

من غرر بك ، عن مولده الوضيع ، وعن علاقاته المشينة مع النساء ،

وعن زيف دعاوية الغربية ، ولن أقول كيف

انه علم حمامة كي تأكل من أذنه

وجعل أتباعه السذج يؤمنون

انها كانت ملاكا يعلمه

أقوال القرآن ...

ان عزمك على كسبي

لدينا مرده

خوفك من الموت . هل هناك قوة في ذلك

الدين الذى يجعلنا نرتعش

من ذلك الذى نسارع كل يوم ، بل كل ساعة ، نحوه ؟

(ص ١١٧ ـ ١١٨)

« هذا رد مفحم » ـ هذا ما تقوله دونوسا ، منقلبة عن دينها بسببه ، باصقة على محمد لاستكمال مراسيم اعتناقها للمسيحية !

واضح تماما أن دونوسا قد تنازلت عن دينها بيسر شديد . لكن هذا التنازل فى مسرحية كتبت لنظارة انكليز في القرن السابع عشر أقنع كاتبه ومشاهديه على السواء . فرد فيتللي يعيد كل النقاط المعروفة عن الاسلام ، ويثبت مدى « زيف » الاسلام لنظارة لا يطالبون بكثير من المنطق في هذا المجال .

● ● ●

تستخدم مسرحية جون درايدن **دون سباستيان** (١٦٩١) ، التي تعتبر عموما واحدة من أفضل مسرحياته ، موضوعات

شـديدة الشبه بتلك التي وجدناها فى **المرتد** لما سـنجر . ففى كل منهما نجد طاغية مسلما (شـخصية معتادة فى المسرحيات التي تتناول الشرق) يقع فى غرام البطلة المسيحية ، ونجد مرتدا يعود فى النهاية الى دينـه الاصـلي ، المسيحية ، وينقد اخوانه المسـيحيين ، ونجد بطلة تنبذ الاسـلام وتعتنق المسيحية ، ونجد أحداثا جادة مطعمة بعناصر كوميدية خشـنة يعرض فيها الجانب المضحك من الاسلام مـن وجهة نظر الكاتب ، ونجد قـوة مسـيحية صـغيرة تنتصر فى النهاية على المسلمين فى عقر دارهم ، رغم أن درايدن اختار أن يسـلب سباستيان انتصاره باضافته لموضوع السفاح الذى يعتذر عنه في مقدمة المسرحية (٣٣) .

كما هى العادة ، يختلف الجانب المسيحي من شخصيات المسرحية عن الجانب المسـلم اختلافا جليا . فالامبراطور المسلم « المـلا مالك » قصد خالقه منه أن يكون « تشخيصا ساطعا للوحشية » (المقدمة ، ص ٢٨٩) . انه « بذاخ ، خبيث ، قاس/كريم عندما يروق له ، لكنه عن الشر لا ينثني أبدا » (ف ١ ، م ١ ، ـ ٢٥ ـ ٢٦) . أما سباستيان فى المقابل

فقد كان رجلا

اطول من غيره من الرجال ، يكاد يصل مرتبة الالوهية .

شجاع ، ورع ، كريم ، عظيـم ، حـر ، عادل كميزان السماء الذى يزن الفصول ،

احب قومه فأحبوه حب العبادة ...

(ف ١ ، م ١ ، ١٠١ ـ ١٠٥)

أما بندر كار المسلم فيقابلـه دوراكس المسيحي . الاول هو الاثير عند الامبـراطور الذى يثق به ويستشيره في كل خطوة يخطوها ، حتى في الامور الشخصية . ولكنه (تنفيـذا لمبدأ الخيانة الذى صادفناه سابقا) يخـون سيده ويتآمر على حكمه . وليس هو بالمخلص حتى لشركائه فى المؤامرة لان حافزه هو طموحه الشخصي الذى لا تحده حدود . أما دوراكس فيشعر انه كان قد أهين من قبل سباستيان بدون وجه حق . لذا فانه يستترك (أى يسلم) نكاية بسباستيان ويلتحق بجيش الملا مالك . لكن عندما تلوح الفرصـة له يرفض خيـانة الامبراطور المسلم رغم أنه لا يحبه ، ويرفض ان يخون عدوه الملك سباستيان الذى كان قـد اقسم ان ينتقم منه . وفى النهاية يثبت دوراكس انه مثـال الاخلاص والشرف .

اخيرا هناك شخصيتا المفتي والفاريز . هنا أيضا تظهر المقارنة تفوق شخصية المسيحي على نده المسلم . فالمفتى ليس فقط انتهازيا ، شهوانيا ، صاحب أعـداد كبيرة من الزوجات والجوارى والعبيد ، بل هو أيضا حر التصرف بدينه بشكل مدهش ، يفسر شرائع الاسلام حسبما تقتضى الحاجات السياسية الآنيـة . اما الفاريز فعلى العكس من ذلك ، اذ يبلغ من حرصه على الفضيلة انه مسـتعد للمخاطرة بحياته كي لا يسـمح للملك سباستيان ان يرتكب جريمة السفاح ولو جهلا .

منـذ بداية المسرحية هناك تأكيـد على قسوة المسلمين . فالمسرحية تبدأ بهذه الابيات

---

33 John Dryden, **Four Tragedies**, el. A. Beaurline and PFredson Bowers (Chicago and London : Univ- of Chicago Press, 1967). p. 288.

ستوضع جميع الاشارات التالية لهذه المسرحية فى متن البحث نفسه .

التي يفوه بها الملا زيدان ، أخو الامبراطور (الذى يتآمر على أخيه كما هو متوقع) :

الآن انتهت حروب افريقيا الطويلة .

وقد استقت أرضنا العطشى من دم المسيحيين ،

وسيكون عند أخى الفاتح كفايته من العبيد

كى يفي بنذره القاسى لقاء النصر .

(ف ١ ، م ١ ، ١ ـ ٤)

وعندما يظهر الامبراطور نفسه بعد ذلك بفترة وجيزة نسمع المفتي ، الذى هو أعلى سلطة دينية فى البلد ، يطالب بوفاء ذلك النذر :

نبينا الجبار يطالبك ، لقاء يوم النصر هذا ،

بالعرفان بالجميل ، بأن تضحي

بالعبيد المسيحيين الذين يجب أن تقدمهم طائعا عند النصر .

(ف ١ ، م ١ ، ١٦٠ ـ ١٦٨)

لسنا بحاجة الى القول ان «نبيناالجبار» لا يطالب بأى « تضحية » من هذا النوع ، لكن هذه الفرية تناسب الصورة التقليدية عن الاسلام كدين قاس انتشر عن طريق الغزو واراقة الدماء فقط (٣٤) .

لكن اذا كان المسلمون ـ فيما تقول المسرحية ـ شديدى الرغبة فى اراقة الدماء، فما أبعدهم ـ فى نظرها ـ عن اتباع بقية تعاليم دينهم . ان الامبراطور يجيب المفتى بهذه الكلمات :

سيرد ثمن الهدية الحمراء مضاعفا ،

وعندما نفي بالنذر سنلغي الصيام ،

اذ ليس يخدم السماء جيدا أولو الوجوه الجائعة .

توقف عن وعظ الناس بالكف عن الشراب أنا أقول لك يامفتي

ان احياء الولائم خشوع ، وانت يارأس ديننا

عندك وجه أحمر متدين .

سنتعلم البذخ ، فديننا البخيل

يخزينا أمام المسيحيين الذين يطعمون جيدا .

أما اذا أصلحت ديننا من الصوم للولائم فيمكنك عندئذ أن تتوقع أفواج المؤمنين .

(ف ١ ، م ١ ، ١٦٩ ـ ١٧٨)

وسرعان ما يطيع المفتي فيقول :

الصوم هو حرفية الشريعة

التى تصلح للرعاع .

---

34. Mustapha.

قارن هذه الابيات التى يقوه بها وزير تركى فى مسرحيةبعنوان للكاتب Roger Boyle :

فليصدأ الملوك المسيحيون فى السلام الخامل

لانهم يظنون انه ليس هناك حرب عادلة الا الحرب الدفاعية .

اما نبينا الشجاع فقد بزغ نجمه بالمذابح

لان الغزو جزء من ديننا .

كذلك الخمرة تعارض الشرع ، لكن هذا أمر حر في أيضا .

أما ان كانت للملوك وهداتهم فالخمرة شراب مقدس .

(ف ١ ، م ١ ، ١٧٩ ـ ١٨٣)

هذا اللغو يفضح نفسه بنفسه ولايحتاج الى تعليق . لكن ذروة الشهوانية الاسلامية ـ في رايه ـ ليست هي مجرد تحويل الصيام الى ولائم وتحويل الامتناع عن المسكرات الى الاستمتاع « بالشراع المقدس » ، بل هى ـ كالعادة ـ الجنس. فسهم الحب يخترق قلبه الامبراطور فى نفس اللحظة التي تزيح الميدا ، أسيرته ، الحجاب عن وجهها في السوق ويرى جمالها الساحر . وبما أن الحب هو الجنس في نظره فانه يقول لبندركار :

لابد أن أمتع نفسي بها ،

لابد ، ومالابد لي أن أفعله سافعله .

اذ ماهو الملك ان لم يعن القدرة على امتاع النفس ؟

(ف ٢ ، م ١ ، ٤٤ ـ ٤٦)

(قارن هذه الجملة الاخيرة مع صورة سباستيان التي وصفت قبلا) .

من بين وسائل اشباع الرغبة الجامحة عند الامبراطور الزواج . لكن الميدا ، التي تحب سباستيان ، ترفض الزواج من الامبراطور وسبب رفضها ـ فيما تقول ـ هو أنها قد تحولت الى الدين المسيحي : « وشريعتك لا تسمح لك بالزواج منى » (ف ٢ ، م ١ ، ٤٧٩) . لكن الشريعة الاسلامية ـ كما نعرف ـ لا تمنع المسلم من الزواج من مسيحية . الا أن حبكة المسرحية تتطلب مثل ذلك الحكم الشرعى ، وما أسهل أن يخترع درايدن حكما كذلك للاسلام . أما الامبراطور الذى اغضبه أن يحال بينه وبين شهوته فانه يهدد « بالحصول على سعادته بالقوة » (ف ٢ ، م١ ، ٤٩٠) وحين يسمع ـ فيما بعد ـ أن الميدا قد تزوجت من سباستيان فانه يحاول اجبار المفتى على اختراع نص قرآنى يبطل الزواج « ويجعل من رغبته شرعية » (ف ٣ ، م ١ ، ٨٦) . لكن المفتى يتردد بادىء ذى بدء نظرا لجسامة الطلب ، الا انه يرضخ مرة ثانية عندما يهدده الامبراطور بالقتل اذا لم يجد للمازق حلا . يقول المفتي الجليل :

صحيح أن شرعنا يمنع الزواج من مسيحية ،

لكنه لا يحرم عليك اغتصابها ،

اذ أن لك حق الفاتح على عبدتك .

ثم انك كلما تماديت فى ايذاء المسيحيين خدمت النبي أكثر لانه يكره تلك الطائفة .

(ف ٣ ، م ١ ، ٩٤ ـ ٩٨)

●●●

ليس من الضرورى ، فيما أعتقد ، أن نتابع هذا الموضوع أكثر مما تابعناه فى الحبكة الكوميدية الثانوية حيث لا تكاد سلاسة الحديث التى تتصف بها الكوميديات السلوكية التي كانت سائدة فى ذلك العصر أن تنجح فى انقاذ المسرحية ، أو على الاقل حبكتها الكوميدية الثانوية ، من صفة الابتذال . فالاقتباسات التي اقتبسناها أعلاه تكفي لان توضح أن الموضوعات التي كنا صادفناها سابقا ظلت تتكرر المرة تلو المرة فى الادب الابداعى الذى استعرضناه . لقد ظلت صورة الاسلام المشوهة تتردد ، وظل يتردد معها اتجاه واضح العداء للاسلام وللمسلمين .

غير أن هـذا الاتجـاه لم يكن وقفا على الادب الابداعى فقط . ففى عام ١٦٤٩ قـام **الكساندر روس** ، كما يعتقد اكثر الباحثين ، بعمل اول ترجمة انكليزية للقرآن من خـلال الترجمـة الفرنسـية التى قام بها **اندريـه سـور دورييه** والتي نشرت فى ذلك العـام . وعنوان ترجمة روس واضح الدلالة : **قرآن محمد ، ترجمة من العربية للفرنسية سـور دورييه ... وترجم للانكليزية حديثا لارضاء كل من يود النظر فى اباطيل الاتراك** . لكن يبدو ان روس وناشره لم يكونا واثقين ــ كما يشير العنوان ــ من أن تلك الاباطيل واضحة للعيان . كان الامر فى نظرهما يحتاج الى مزيد مـن التفسير ، لذا كتب **روس** « تحذيرا لازما أو نصيحة لاولئك الذين يودون معرفة الفائدة المرجوة من قراءة القرآن ، أو ان كان هناك خطر فى ذلك . » وقد ضمن هذا التحذير فى الترجمة ذاتها . يبدأ التحذير بهذه الكلمات :

أيها القارىء الكريم ، ها قد وصل الدجال العربي

الكبير أخيرا بعد الف سنة عبر فرنسا الى انكلترا ،

وقد تعلم قرآنه ، ذلك الخليط من الاباطيل (ابن

مشوه كأبيه ، وفيه من الهرطقات بقدر ما في رأس صاحبه

الشائه من قشرة) أن يتكلم اللغة الانكليزية . (٣٥)

يقول روس انه لا خطر من قراءة القرآن لان المسيحيين عندهم كتب أعظم منه . وهـم يقرأون الكتب الهرطقية أحيانا بدون ان ينخدعوا بها . ثم ان القرآن متوفر لقرائه بالفرنسية والايطالية ، لذا فان اضافة ترجمة انكليزية لا ضرر منها . (٣٦) كذلك يبدو أن روس هو الذى كتب سيرة محمد التى تضمنتهـا الترجمة . وكما يلاحظ **بايرون سمث** بحـق ان تلك السيرة « مثل صارخ على بقاء الاساطير القديمة حتى تلك الفترة . » (٣٧) فهي لا تزيد عن كونها تجميعا للاساطير التي صادفناها منذ العصور الوسطى : المولد الوضيـع ، الصرع ، سيرجيوس ، الحمامة ، الثور ... لم يكن وضع البحث العلمى قد تحسن كثيرا بعد .

● ● ●

هناك سيرتان اخريان تستحقان الاشارة . (ولنقل هنا بشكل عابر ان هذا التركيز على شخصية الرسول ليس وليد المصادفة . فقد كان من هم الجدل المسيحي أن يفند الاسلام عن طريق تشويه سمعة محمد على الطريقة التي دعوها المناطقة argumentum and hominem والتي كانوا يظنونها أقوى سبل الهجوم .) واولى هاتين السيرتين تلك التي كتبها الانسيلوت أديسون بعنوان **حالة المذهب المحمدى الاولى ، او وصف للدعوى الباطلة ولحياة مؤلفهـا** . وقد نشرت تلك السيرة بدون اسم مؤلفها عام ١٦٧٨ ، ثم تحت اسم المؤلف عـام ١٦٧٩ وبعنوان **حياة محمد وموته** .

35. Quoted by Chew, p. 449,
36. See Chew, p. 450.
37. Smith, pp. 29-60,

وكما يقول بايرون‌سمث : « يحاول اديسون أن يقدم لنا حياة محمد خالية من الاساطير التي تجمعت حول اسمه ، وهو ينجح فى ذلك بشكل يدعو الى الاعجاب ، حتى الى حد اطراح قصة سيرجيوس . لكنه احيانا لا يستطيع أن يقاوم اغراء سرد القصة الاسطورية أولا ثم الحقيقة التاريخية. » (٣٨) لكن اطراح العنصر المختلق عن حياة الرسول لا يعني المحاولة المحايدة غير العاطفية لفهم الرجل والدين الذى بشر به . فما يزال محمد فى نظر هذا الباحث دجالا ودينه هرطقة (غير مسيحية هذه المرة) انتشرت عن طريق القوة والخديعة .

اما السيرة الثانية فهي اكثر طموحا رغم انها تظهر نفس الروح العدائية المتعصبة . وقد كتبها همفرى بريد وبعنوان **الطبيعة الصحيحة للدعوى الباطلة كما تظهر على اوضحها فى حياة محمد** (١٦٩٧) . وقد قصد المؤلف من كتابه أن يثبت لتلك الطائفة من المفكرين الذين يؤمنون بالله ولا يؤمنون بالاديان المنزلة (deists) ان المسيحية ليست باطلة عن طريق اظهار الطبيعة الحقيقية للدعوى الباطلة كما تتمثل بالاسلام . ان صفات الدعوى الباطلة فى نظر **بريد** وسيع هي كما يلخصها بايرون سمث : « ان الدعوى تشجع الشهوات الجسدية ، ان مؤلفيها لناس اشرار ، ان كلتا الصفتين السابقتين تظهران فى تركيبها ذاته ، انها دائما تضم امثلة واضحة على الزيف ، انها تنتشر اول ما تنتشر بالخداع ، ان طبيعتها لا يمكن أن تخفى طويلا بعد ان تظهر للكثير من المتآمرين وانها لا يمكن ان تتركز الا بالقوة . » (٣٩)

وكلنا يذكر كيف أن المجادلين المسيحيين في العصور الوسطي كانوا يشترطون بعض الشروط للنبوة يعرفون مقدما أنها شروط تغاير حياة محمد . هنا أيضا نرى أن **بريدو** يجادل بنفس الطريقة ، فهو يفسر الحقائق التاريخية المعروفة عن الاسلام بطريقة تجعل من السهل عليه أن يضع معايير يستطيع عن طريقها ان يظهر ان الاسلام دعوى باطلة . خذ مثلا مسألة الشهوة الجسدية . فى التراث المسيحي كان محمد دائما يعتبر رجلا حسيا ، كثيرا ما اخترع الآيات القرآنية كي يبرر شهوته للنساء . وازاء ذلك لم يكن فى وسع بريدو أن يقاوم اغراء وضع الشهوة الجسدية كواحدة من أولى صفات الدعوى الباطلة . ولو تمكنا بشكل ما من اثبات ان زيجات محمد لم تكن فى الواقع انعكاسا لشهوته فان هذا الجانب على الاقل من جدل بريدو سيسقط سقوطا لا يقوم بعدها . ليس من همنا أن نفند اراء **بريدو** هنا ، لكن النقطة التى تستحق التأكيد هي ان روح التعصب ضد الاسلام حتى بين الباحثين كانت ما تزال قوية جدا حتى فى نهاية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

لكن رياح التغيير كانت قد بدأت تهب . فقد بدأت بعض الاختلافات ، الاشد سخفا من شخصية الرسول بشكل خاص ، بالاختفاء ، وأدى ضمور الحماس الدينى في القرن الثامن عشر بالمقارنة مع القرون الماضية الى تقبل نظرة اكثر موضوعية عن الاسلام والمسلمين . ويعطينا **جورج سيل** ، أول من ترجم القرآن الى الانجليزية عن العربية مباشرة مثالا جيدا على الاتجاه الآخذ بالتغيير . ولنلاحظ على الفور

38. Ibid., p. 30.

39. Ibid., p. 32.

انه لم يكن لدى سيل اى تعاطف مع الاسلام وانه كان يعتقد أن القرآن « كتاب مزيف بشكل واضح » (٤٠) ، وانه ، أى سيل ، هو الذى اشاع الفكرة التي طالما ترددت بعده والقائلة بأن القرآن كتاب بليد ، مليء بالتكرار . كذلك فان سيل ترجم القرآن ليقدم للبروتستانيين (الذين كان يعدهم مؤهلين أكثر من الكاثوليك) وسيلة لكسب المسلمين الى دينهم بعد أن يفهموا نقاط الضعف في الاسلام . لكن سيل كان رجل بحث وعلم ، وانعدام التعاطف مع الاسلام يفسره ايمانه بدين آخر ، وانتقاده لاسلوب القرآن مسألة تهم النقد الادبي بالدرجة الاولى وقد وجد سيل البحاثة « أن أولئك الذين يتصورون أن (شريعة محمد) قد انتشرت بالسيف وحده مخطئون أشد الخطأ . » (٤١) ويقول : « عندما تكلمت عن محمد وقرآنه لم اسمح لنفسي أن أستعمل تلك الصفات الكريهة والتعابير البذيئة التي يبدو انها اقوى وسائل التنفيذ لدى الكثيرين ممن كتبوا عنهما . »(٤٢) لا عجب أن هذا الكاتب ، حسبما يقول ر . ت . دافنبورت الذى كتب النبذة القصيرة عن حياة المترجم فى الطبعة التي نستخدمها ، كان قد اتهم بأنه اعتنق الاسلام سرا . (٤٣)

●●●

لقد كان سيل واحدا من مجموعة كبيرة من الباحثين الذين كانت تهمهم الحقيقة اكثر مما يهمهم تشويه الاسلام ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر « ديربيلو » ، الاستاذ فى الكلية الملكية الفرنسية ، والذى ألف الكتاب الرائع المكتبة الشرقية (معجم موسوعي يضم معلومات موثوقة عن التراث الاسلامي) ، وتلميذه « جالان » الذى خلفه فى كرسى الاستاذية وترجم الف ليلة وليلة الى الفرنسية و « بوكوك » ، أستاذ الدراسات العربية فى أوكسفورد الذى ترجم حى بن يقظان الى اللاتينية بعنوان معناه معلم نفسه ، « واوكلى » استاذ اللغة العربية فى جامعة كيمبرج الذى كتب تاريخا هاما للعرب .

لقد درس هؤلاء الكتاب النصوص الاصلية فوجدوا فيها صورة مختلفة أشد الاختلاف عن الصورة التي كانت شائعة في التراث الأوروبي . ويلخص بول آزار الافكار الجديدة التي جاء بها هؤلاء بهذه الكلمات :

اشار هؤلاء العلماء الى ان ذلك القسم الكبير من الجنس البشرى ما كان ليتبع خطى محمد لو انه لم يكن اكثر من حالم مصاب بالصرع . وما كان لدين بتلك الدرجة من الفجاجة والسذاجة ، كما كان يشاع عنه ، ان يبدى تلك الدرجة الحيوية ويحرز مثل ذلك التقدم . ولو ان الناس بدلا من ان يشيعوا اكذب القصص وابعدها عن الحقيقة ذهبوا الى العرب انفسهم من

40. George Sale, trans., **The Koran : Commonly Called The Alcoran of Mohammad...to Which is Prefixed a Preliminary Discourse**, 6th ed. (1734; rpt. Philadelphia : Lippincott & wo., 1876),

41. Ibid.

42. Ibid., p. vi.

43. Ibid., p. xiii.

أجـل معرفة الحقيقـة لوجـدوا ان محمـدا واتباعه كانوا يتمتعون بصفات فى القلب والعقل تجعلهم لا يقلون قيد انماة عن اعظم الابطـال عند أى من اجناس العالم الاخرى ... والواقع انه كان فى دينهم من التناسق بقدر ما فيـه من السمو والجمال . وعندما اجتاحت البربرية وجه البسيطة ، من هو الذى حمل لواء العقل وحضارته ؟ انهم العرب ... (٤٤)

لقد ادى انكماش قوة الامبراطـوريـة العثمانية ، وازدياد السيادة البحرية البريطانية على بحار العالم (مما خفف خطر قراصنة شمال أفريقيا على التجـارة الدوليـة) ، وزيـادة الاتصالات المباشرة بين الشرق والغرب (ممـا أدى الى ازدياد عدد كتاب الرحلات الموثوقـة التي يعتمد عليها أكثر من سابقاتها فى القرون الماضية) ، وارتقـاء البحث العلمي الحديث وروحه الاكثر تجردا (مما ادى الى زيادة عدد الترجمات المباشرة عن اللغات الشرقية عامـة والعربية خاصة ، فضلا عن زيادة عدد البحوث المتجردة) ـ كل هذه العوامل وغيرها ادت الى تغير الصورة القديمة وبروز صورة جديدة . الا أن الصورة الجديدة بدورها ليست صورة دقيقة كل الدقة . فلئن كانت الصورة الاولى قد حددتها الرومانسية المتنامية والاستطيقا الجديدة ، ان صح التعبير . فترجمة جالان لالف ليلة وليلة فى أوائل القرن الثامـن عشر مثلا شحذت الاهتمام بالشرق بصورة دفعت بالدين الى المؤخرة وغذت بدلا عنه تلك الروح الرومانسية المتناميـة التي كانت تغتذى مـن مصادر أخرى فى نفس الوقت أهمها المصادر الصينية والامريكية والاسكندنافية .(٤٥) وهذه الصورة الرومانسية الجديدة نأمـل ان نرسمها فى بحث خاص بها فى المستقبل القريب .

* * *

44. Paul Hazard, **The European Mind : 1680-1715**, trans. J. Lewis May (Harmondaworth Penguin Books, 1964), p. 32,

حول الر الف ليلة وليلة وغيرها من الاقاصيص الشرقية التى ترجمت الى اللغات الاوروبية بعد النجاح الهائل الذى احرزه الكتاب الاول انظر :

45. Martina P. Conant, **The Oriental Tale in England in the Eighteenth Century** (New York : Columbia Univ. Press, 1968).

اما الصورة المتغيرة للاسـلام والمسـلمين التى بدات بالظهور فى القرن الثامن عشر واستمرت بالتطور خلال القرن التالى فتجد تتبعا لها فى الاطروحة غير المنشورة لكاتب هذا البحث بعنوان :

The Crescent and the Cross : Islam and the Muslims in English Literature from Johnson to Byron.

والتى قدمها لنيل درجة الدكتوراه عام ١٩٧٣ فى جامعة انديانا بالولايات المتحدة .

قصة ٣٥٠٠ عام من عمر ايران

ترجمة الدكتور : احمد كمال الدين حلمى

كلما تطرق بنا الحديث الى التاريخ السياسي لايران ، وعرّج بنا على جغرافيتها التاريخية ... وجدنا انفسنا مضطرين الى ادارة دفة الحديث نحو حدودها الحالية .. تلك الحدود التي خلّفتها الحوادث السياسية والعسكرية التي تعرضت لها البلاد فى القرنين الأخيرين . ووجدنا انفسنا بالتالي مضطرين الى تعميم بحثنا بحيث يشمل البلاد الواسعة التي يطلق عليها « فلاة ايران » .

وفلاة ايران (١) أو بتعبير آخر «نجد ايران» هي احدى فلوات آسيا الواسعة المترامية

الهدف من هذا البحث هو ايراد خلاصة تاريخ الآريين الايرانيين فى بلاد ايرن ... وهو التاريخ الذى ينحصر بين الالف الثاني قبل الميلاد وعصرنا الحالى ، اى اواخر الالف الثانى بعد الميلاد .. وهى فترة تناهز الثلاثة آلاف وخمسمائة عام . (المترجم)

(١) وقع اختيارى على كلمة « بشته » لتكون ترجمة فارسية للكلمة الفرنسية plateau ، تلك الكلمة التى ترجمها البعض الى (فلاة) .. وكأنما كانت هناك علاقة مشابهة - فى الصورة لا فى المعنى - بين كلمتى (بلاتو) و (فلاة) . وقد اسعفت هذه الكلمة من يترجمون الى العربية الى حد ما ، وشجعتهم على اختيارها . وان كانت الفلاة تعنى فى العربية الصحراء التي لاعشب فيها ولا ماء ، او الخالية من الماء فقط كما يرد فى كتاب منتهى الأرب ، بينما ترد كلمة (بلاتو) فى الفارسية بمعنى الصحراء المرتفعة .

الأطراف . ويحدها من الجنوب بحر فارس وبحر عمان . وبحر فارس اسم آخر من أسماء الخليج (٢) ، وقد أطلق عليه ياقوت هذا الاسم ، وقال ان حمزة اسماه باسمه الفارسي على النحو التالي : (زراه « زره » كامسير) . كما قال ان القوم كانوا يسمون قسما منه ـ وهو القسم الواقع فى مدينة (مهروبان) الى جوار عبادان ـ باسم (زراه «زره» افونج)(٣).

أما حدود الفلاة من الشمال فهي بحر مازندران وحوض نهر كورا وصحراء خوارزم. وبحر مازندران اسم آخر لبحر آبسكون ، وبحر طبرستان،وبحر جرجان ، وبحر الخزر، وبحر خزران. وبناء على قول حمزة بن الحسن فان الفرس كانوا يسمون هذا البحر : زره اكفوده (اكفرده) ، كما كانوا يسمونه : بحر اكفرده (اكفوده) (٤) .

أما (كورا) أو (كر) فهو حوض نهر يجري فى بلاد القوقاز الحالية من الغرب الى الشرق ويصب فى بحر مازندران .

وصحراء خوارزم تطلق على الفلاة التي يمر قسمها الشرقي بحدود مرو حتى يصل الى جيحون ، ويمر قسمها الجنوبي بحدود باورد ونسا وفرا ودهستان وبحر خزران حتى يبلغ حدود اتل . وفى غربي هذه الفلاة يجري نهر اتل، بينما يجرى نهر جيحون وبحر خوارزم فى شمالها ، وتقع حدود الغوز (الغز) الممتدة حتى حدود البلغار .

هذا ويطلق على هذه الصحراء اسم مفازة الغزية أو مفازة خوارزم أو صحراء التركمان ، ويستندون فى التسمية الأخيرة الى أن الغز = التركمان . ويشكل حصى خوارزم أو حصى آمو جزءا من هذه الصحراء التي قد يبلغ اتساعها فى بعض المواضع منزلا واحدا ، وقد يصل فى بعض المواضع الى سبعة منازل . (٥)

ويحد الفلاة من الغرب السفوح الغربية لجبال زاجروس (Zagros) ممتدة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، ومنطقة آروند رود (٦) . بينما يحدها من الشرق جبال وادي السند الغربية وسفوح جبال باميـر الغربية ومنطقة نهر آمويه (جيحون) .

هذا وتقدر مساحة هذه الفلاة الواسعة بـ ٢٦٠ الف كيلو متر مربع . ومنذ القدم وهذه

---

(٢) انظر : حدود العالم ، طبع طهران ، ص ٨ .

(٣) انظر : معجم البلدان لياقوت الحموى ، تحت عبارة : بحر فارس .

(٤) انظر : معجم البلدان لياقوت الحموى ، تحت عبارة : بحر الخزر .

(٥) انظر : حدود العالم ، طبع طهران ، ص ٣٥ .

(٦) اروندرود : هو الاسم الذى اطلقه الايرانيون على نهر دجلة . يقول الفردوسى الشاعر اثناء عرضه لقصة ثورة فريدون على الضحاك ..

ـ فاذا كنت لاتعرف اللغة البهلوية ..

فاطلق على (اروند) اسم دجلة كما فى العربية .

فمما ذكره الفردوسي يفهم ان (اروندرود) هوالاسم البهلوى لدجلة .

« واروند » التى يمكن ابدالها فى الفارسية عادةالى « الوند » تعنى المنحدرات الشديدة ، وتطلق على الجبل العالى ذى المنحدر الوعر ، او على مجرى النهرالذى ينحدر ماؤه فى سرعة فائقة .

والاصل فى اللغة الافستية (اورونت) Aurvant بمعنى حاد وسريع

E. Blochet ; Lexique des Fragments de I, Avesta, Paris 1900 p. 5

البلاد تسودها ـ على سعتها ـ لغة واحدة ، وتعمها لهجات متشابهة ، وتروج فى جنباتها ثقافة واحدة . هذه اللغة الواحدة هي لغة ايران ، وهذه الثقافة هي ثقافتها .

وكان يسكن وديان هذه البلاد وأراضيها الخصيبة ـ هجرة الآريين الايرانيين اليها ـ اناس ينتمون الى العديد من العناصر والاجناس ، ويتشابهون فى نسيج حضاراتهم .. غير أننا لا نملك الكثير من المعلومات عنهم .

وقد تجمعت ـ عن طريق الحفريات التي اجريت فى فلاة ايران خلال القرن الاخير بعض المعلومات الخاصة بهذا الشأن ، وما زالت فى نمو مطرد ، تنحو نحو التكامل .

والامر المسلّم به ، والذي أمكن استنتاجه من هذه الحفريات هو ان بعض هذه الاقوام كان يسكن المدن والقرى ، ويمارس صناعة الأواني والآلات المعدنية ، ويعرف كيفية دفن اجساد الموتى ، ووسائل تربية الحيوانات .. وغير ذلك من اساليب الحياة الحضارية واحتياجاتها ، كما أمكن استنتاج أن حضارة بعضهم تعود الى ما قبل ميلاد المسيح بأربعة آلاف سنة .

ومن القبائل المعروفة التى سكنت هذه البلاد ـ قبل هجرة الآريين ـ قبيلة تنتمي الى العنصر الكاسي (Kassites) . وكانت هذه القبيلة تعيش فى الأماكن الجبلية من زاجروس . وقد أمكنها ان تسيطر على بابل ، وان تقبض على زمام الحكم فيها ابتداء من القرن الثامن عشر قبل الميلاد وحتى عام **١١٧١ ق.م. وينتمي أفرادها الى نفس العنصر** الذي ينتمي اليه الأوراتيون أي شعب اوراتي (ouratiens) الذي كان يتخذ من ارمنستان مسكنا له ، والميتانيون أي الشعب الميتاني الذي كان يسكن شمال العراق ، والعيلاميون الذين يعتبرون ابرز هذه الشعوب . وكانوا يحكمون فى انزان وشوش ، ويمتد نفوذهم فى بعض الاحيان الى حدود بابل .

فهؤلاء القوم اذاً هم من العنصر الذى كان أفراده متناثرين على امتداد زاجروس ، والوديان التي فى اطرافه من الشمال الى الجنوب .

اما الشعوب والاجناس الاخرى التى كانت تسكن الانحاء الوسطى والشمالية من ايران .. فان حضارة بعضها ـ امثال سكان هضبة سيلك كاشان ـ حضارة تسترعى الالتفات . (٧)

وفي منتصف الالف الثانية قبل ميلاد المسيح سلكت طوائف تنتمى الى عنصر ابيض طريقها الى داخل نجد ايران .. عابرة فى سبيل ذلك جيحون وجبال القوقاز .

وهكذا وفدت على البلاد عدة قبائل تشكل فرعا من فروع العنصر الابيض الهندو اوروبى (٨) ، اتخذت لها مقرا رئيسيا هو المساحة الواقعة بين هندوستان وسواحل

---

(٧) ارجع فى هذا الصدد الى :

ايران از آغازتا اسلام .. تاليف اقاى گيرشمن ، ترجمة اقاى دكتر محمد معين ، ص ٨ ـ ٥٦ .

(٨) يلق الاسم :Indo-européen(enne) على عدد من الشعوب ذات لغات متقاربة متشابهة تنحدر من اصل واحد .

المحيط الاطلسي في أوروبا (مضافا اليها جزر بريطانيا العظمى) (٩) .

ويعرف عن هذه القبائل أنها قد انفصلت عن زميلاتها في العنصر قبل ميلاد المسيح بما يناهز الثلاثة آلاف عام .. اذ يرجع عهد أقدم مؤلف أدبي ما زال في أيدينا عن هذه الشعبة ـ ونعني به اجزاء الفدا القديمة ـ الى أواسط الالف الثانية قبل ميلاد المسيح .

وقد كان حساب القرون المحصورة بين ظهور أدب الفدا وهجرة الطائفة الهندية المتفرعة من الشعبة المذكورة من آسيا الوسطى الى الهند ... وحساب المدة التي ينبغي ان تعيشها هذه الطائفة مع طائفة أخرى تنتمي الى نفس الشعبة في آسيا الوسطى .. نقول كان هذا الحساب وذاك هما الدافع الذي دفع المحققين الى قبول التاريخ المذكور .

وقد أطلق على الشعبة التي أشرنا اليها اسم آريا (= آرى = Arya) . وهي تنقسم الى طوائف ثلاث : الهنود والايرانيين والسكا . (١٠)

وأخذت هذه القبائل الوافدة المهاجرة تتجول في الصحراء وترعى الماشية ، وكانت شأنها شأن غيرها من سكان الصحراء .. تبدي تفوقا في ميدان الفروسية ، ومهارة في قذف السهام . وانتهى بها الامر الى ان تعيش مع بعضها البعض في جهة من جهات آسيا الوسطى .. كانت تمتد محتوية سفوح نجد بامير ، ووادى آمويه وسير الخصيبين .

وقد اختلف الباحثون والمحققون فيما يتعلق بالموطن الاول للآريين ـ أي الشعبة الهندو أوروبية التي هاجرت الى آسيا الوسطى ـ فقال البعض انه يقع في وسط واديي نهرى سيحون وجيحون الخصيبين . وقال البعض بل هو سفوح فلاة بامير ومنابع النهرين الكبيرين المباركة . واعتقد آخرون أنه يشغل كل الاجزاء الخصيبة التي تجاور بلاد ما وراء النهر .

واذا اخذنا برأي الاغلبية لحكمنا بأن أول موطن للشعوب الآرية الايرانية ـ بعد انفصالها عن بقية الشعوب الآرية ـ هو آسيا الصغرى.

ويرى المحققون أمثال تيل Tiele يوستي Yusti ، ماركوارت Marquart وآندراس Andreas أن الموطن المذكور يقع الى جانب خوارزم وخيوه الحاليين .. أي

---

(٩) تتعدد البحوث حول اجابة السؤال التالى :

اين كان اول مقر للهندو اوروبيين الاصليين ؟

تتفاوت آراء علماء الاجناس واللغات فى القرنين التاسع عشر والعشرين حول هذا الموضوع ومن جملة الاسماء التي ذكروها فى هذا الشان : اوروبا الشرقية ،اوروبا الشمالية (البلاد الاسكندنافية) ، سواحل البحر الاسود ، وناحية من نواحي آسيا الوسطى .

(١٠) استعمل الكتاب اليونانيون اسم(enne) Aryen ـ منذ القدم العصور ـ لنفس الغرض ، ارجع الى دائرة المعارف ـ لاروس ، والى تاريخ ايران باستان ..تاليف المرحوم بشير الدولة ، الطبعة الاولى ، ص ١٥٣ وما بعدها ، والى يسناها ـ الاستاذ بور داود ج ١ص ٣٤ .

يضاف الى ذلك انه يكثر فى الاشارات القديمة التىخلفها الايرانيون اطلاق اسم الآريين على الايرانيين . فنجد ان « داريوش الكبير » ـ على سبيل المثال ـ قداعتبر نفسه فى نقش رستم (آريا ومن العنصر الآرى) . وبالرجوع الى مهريشت نجد انه قد اشير فيها الى مشاهدةمهر للمواطن الآرية Airyana Shayanem .

فى الناحية التى أطلق عليها فى الأفستا ــ كتاب زرادشت المقدس ــ اسم آئيرين واجه (ايران ويج) Airyana-Vaéjah (١١)

ويمكننا القول بأن هذه الاقوام كانت تنقسم فى جملتها الى مجموعتين أساسيتين ، يطلق على أولاهما ــ وهي التي تتميز بالقوة والعنف ــ اسم (سك) . بينما يطلق على المجموعة الثانية ــ وهي التي تفوق الاولى تمدنا وحضارة ــ اسم (آري) .

ويرد اسم السكا فى المتون الاوروبية قديمها وحديثها على النحو التالي :
Scythe, Sace Saka (وهو نفس الاسم المأخوذ من الاصل اليوناني « شكوث ») .

وبناء على ما ذكره هيرودوت فان هذه الطائفة هي الطائفة نفسها التي كان أفرادها يسمون انفسهم Scolotes .

وكان السكا دائمي الترحال لا يقر لهم قرار، كما كانوا فرسانا يتميزون بالشجاعة والاقدام والمهارة فى تفويق السهام . وطبقا لاقوال الجغرافيين والمؤرخين أمثال (هيرودوت (Herodote) كتزياس (Ktésias) ، جوستن (Justin) ، وديودور سيسلي Diodore de Sicile فقد استطاع السكا بفضل هذه الشجاعة وتلك المهارة ان يسيطروا فى سرعة خاطفة على آسيا الوسطى ، وان يخضعوا لسيطرتهم المنطقة المحصورة بين حدود جيحون من جهة القوقاز وسواحل البحر الاسود من جهة أخرى .

وفى القرن السابع قبل الميلاد تمكن هؤلاء القوم من عبور جبال القوقاز ، وتدفقوا فى الاماكن المجاورة لما بين النهرين ، حيث هزموا « كواكسارس » الملك المادي ، قبل ان يسلكوا الطريق الى حدود مصر . وقد نجم عن تقدمهم وغلبتهم خراب كبير ، ولم تتمكن الدولة المادية من الخلاص من براثنهم الا باللجوء للحيلة والخديعة ، وقتل زعمائهم فى وليمة رسمية . (١٢)

ويرى بعض الدارسين ان قبيلتي داه Daha وسئيريم Saïrima ــ اللذين ورد اسمهما فى اڤستان ــ قبيلتان ايرانيتان ، بينما يرى البعض الآخر أنهما تنتميان الى السكا .

وكلمة داه تلفظ فى السنسكريتية (داس)، وهي تعني قبائل العدو الشريرة التي تحمل صفات الشيطان . وبناء على قول آرين Arrien

---

(١١) فيما يتعلق بهذه الكلمة والشروح المستفيضة حولها ، ارجع الى : اليستا ، درج ١ تحت عنوان « ايران ويج » للاستاذ بور داود ، ص ٢٨ وما بعدها مزدابرستى در ايران ، ترجمة الدكتور صفا عن رسالتى كريستنى سن، متن الصفحات ١٣ ، ١٤ ، ١٥ وحواشيها، طبع طهران ١٣٣٦ .

هذا ، وقد لفظ بعض المستشرقين (آندراس وتبعه كريستن سن Arthur Christensen كلمة اليرين واجه على النحو التالى : آرين ، ويوجه Aryana vyôcah ولكن الرواية التقليدية لهذه الكلمة تاخذ الصورة التى كتبناها .

انظر : مزدا برستى در ايران ، للدكتور صفا ، حاشية ص ١٣ .

(١٢) أورد هيرودوت شرحا مسهبا عن السكا الغربيين ومساكنهم ، وذكر عاداتهم وتقاليدهم ، وهو شرح هام يستحق الدراسة والتمحيص .

انظر : تاريخ هيرودوت (كتاب ١٤ ــ ٨٢) .

وفيما يتعلق بالسكا ، ارجع الى : ايران باستان ، للمرحوم مشير الدولة ، ج ١ ط ١ ص ٥٧٧ ــ ٦١٨ ، ج ٣ ط ٢ ، ص ٢٢٥٦ ــ ٢٢٥٧ ، ٢٢٦٢ ــ ٢٢٦٥ .

فان قبيلة داه أو دا أى dâoi أو داه Dahae كانت تسكن شمال جرجان (هيركانيا) ومرو على عهد الاسكندر . وبناء على قول غيره من المؤرخين فانها لم تترك شمالي جرجان قط ، وظلت هناك على نحو جعلهم يطلقون على هذه الناحية اسم (دهستان) . (١٣)

اما الاسم سئيريم Sairima ـ سارمات Sarmate فقد ورد فى الفقرة ١٤٣ من اليشت ١٣ (فروردين) يشت) . ويرى **دوهار له** ان مملكة سئيريم هي سورية وآسيا الغربية ، ويرى ماركوارث ان سئيريم تعني شعب سور ماتاى Sauromat (١٤) .

ويقصد بكلمة (سرم) الواردة فى أفستا العصر الاشكاني نفس شعب (سارمات) الذي ذكره الكتاب اليونانيون القدماء . ويحتمل ايضا ان يكون (سورماتاى) و (سارمات) اسمين لشعبين مختلفين . (١٥)

وقد أخذت قبائل سارمات العديدة ـ التي نشاهد اسمها فى المتون اليونانية . كتاريخ هيرودوت ـ تنتشر ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد تقريبا فى الممالك الواسعة الواقعة بين البيلقان والسواحل الغربية لبحرمازندران . وكانت هذه الجهات الواسعة تنقسم الى قسمين :

سارماتى الغربية (أوروبية) وسارماتى الشرقية (آسيوية) .

وطبقا لما ورد فى احدى القصص القديمة فان قبائل سارمات أو سوروماتSauromate قد نشأتعن اختلاط السكا والعنصر الامازوني Amazone وعلى أي حال فان قبائل سارمات من نفس جنس قبائل السكا ، وكانت تحارب الى جوارها جنبا الى جنب ضد الشاهنشاه الهخامنشي « داريوش » .

وقد نشأت قصة « سلم » (=سرم) وحربه الى جانب أخيه « تور » ضد « ايرج » .. نتيجة لصراع قبائل سارمات (سورمات) مع الايرانيين ، تلك القبائل التي كان يتكون من مجموعها (شعب سئيريم) الوارد فى الافستا.

هذا وترد فى النقوش الهخامنشية والكتابات الفارسية واليونانية عدة أسماء لقبائل اخرى غير ما ذكرنا . ومن بين هذه الاسماء : سك هئوم ورك Saka-Haoma-Varka (١٦) ، سك تيكرخئوده Saka-Tigra-Axodah (١٧) وكل طائفة من هاتين الطائفتين فرع من السكا مجاور لسيحون .

ويقصد بـ Sakâtyaya-tara-darayâ البلاد التي استوطنها السكا فيما وراء البحر ونعني بالبحر هنا البحر الاسود . كما يقصد بها مجموعة السكا الاوروبيين .

وفى العصرين المادي والهخامنشي أكثر عدد من هذه القبائل من الاغارة على الآريين

---

(١٣) مزدا برستى در ايران قديم ص ٨٥ .

(١٤) (سئوروم ـ ت) Sauruma-ta يتكرر فيهاحرف « U » وتستعمل التاء فى حالة الجمع . وقد كان فى الاصل طبقا لرسم ايران الشمالية (سئى ديم) بتكرارالحرف (ا) ..

(١٥) انظر : مزدا برستى در ايران قديم ، ترجمةدكتر صفا عن رسالتى كريستن سن ، ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(١٦) هئوم = هوم : وهو عشب مقدس لدى الآدين القدماء . ومن المسلم به ان هذا العشب كان مقدسا ايضا لدى ابناء عمومتهم من السكا .. وكان يستخدم فى الاحتفالات الدينية . ورك يعنى برك اى ورقة شجر .

(١٧) الاسم يعنى السكا التشيطين .

الايرانيين . وقد تمكن داريوش الكبير ـ لاول مرة ـ من اخضاع معظمها ، وأفلح فى ادخالها فى طاعة الدولة الايرانية . (١٨)

وقد ترك طول الصراع والجلاد بين الايرانيين والسكا أعمق الاثر فى قصص ايران الشعبي . ووضح فى الكتب ابتداء من الافستا حتى الشاهنامة . وباتت هذه الصراعات تشكل جانبا من مادة تاريخ ايران البطولي ، وحين حلت القبائل الصفراء الاورال التائية محل عناصر آسيا الوسطى البيضاء ، وشغلت مكانها فى القرون التالية ، نسبت كل هذه الاحداث التاريخية المرتبطة بها الى العناصر الصفراء التورانية . بينما تؤكد التحقيقات ويثبت الحديث من الابحاث انه حتى العنصر التوري (التوراني) ـ وهو العنصر الذي تكرر ذكر اسمه فى الافستا ـ كان هو الآخر ـ بكل أبطاله وملوكه ـ أحد عناصر آسيا الوسطى الهندو اوروبية .

ويطلق الاسم : اورال التائى Ouralo-Altaique على مجموعة من الاجناس البشرية ولغاتها ، وهى الاجناس التى كانت تقع مواطنها الاصلية بين سلسلة جبال اورال (الواقعة فى أوروبا الشرقية ، والتى تعد الحد الفاصل بين اوروبا وآسيا) وبين جبال التائى فى منشوريا ، ثم انقسمت بعد ذلك بسبب تفرق ابنائها وتبعثرهم .

ومن الاسماء الاخرى التى تسمى بها الأجناس الأورال التائية :

اورالى Ouralien ، اوكروفنلاى Ougro-Finnois ، اوكرو آلتائى Ougro-Altaique ، فينو اوكرابى Finno-Ougrien ، فينو تاتارى Finno-tatar ، تورانى ، وغيرها .

ويطلق الايرانيون على هذا الجنس فى أدبهم الفارسى اسم الترك والتورانيين . وينسبون اليهم العديد من الاقوام أمثال :

الهون ، القرقيز (الخرخيز) ، القرلق (قارلق ، خرلخ ، خلخ) ، الغز (التركمان ، تغزغز ، تغوزا ، غوز) ، القفجاق ، الكيماك يفما ، توخشى ، القنقلى ، الخزر ، التتار ، المغول ، الخطا وامثالها) .

قدم الآريون الايرانيون الى ايران ـ كما رأينا ـ من عدة اماكن ، وسلكوا اكثر من طريق ، وتمت هجرتهم تدريجيا . وحين وطئت قدم أول جنس آرى قلوات ايران .. تبعتها أقدام بقية القبائل ، وأخذت فى الانسياح تدريجيا . غير أن دخولها البلاد وانتشار نفوذها لم يكن بالأمر الهين السهل ، فقد اضطرت الى الصدام بمن تقدمها من قبائل . ولم تنج احداها من الوقوع فى قبضة قبائل السكا التى كانت تهاجم حدود سيحون ، ويصل بها الهجوم الى أعماق ما وراء النهر والجهات القريبة من آمويه .

وكما نتج عن اصطدام الايرانيين بالسكا قصص بطولية عديدة .. فقد نسجت أذهان الايرانيين الشرقيين اكثر من قصة نتيجة للحروب التى وقعت بين الايرانيين وتلك الشعوب التى ذكرناها . وهذه القصص تشكل التراث القصصى البطولى الشعبى لايران .

وقد تسببت هجمات الأورال التائيين على قبائل السكا فى اضطرارها الى التقهقر ، واتجاه بعضها شطر حدود ايران الشمالية والشرقية . كما تسببت هذه الهجمات نفسها فى ارتباط طوائف أكبر ببنى عمومتها ، وذلك فى الاراضى الواقعة شمالى بحر الخزر وغربه ، أو البحر الاسود ، أو الاراضى الشرقية لشبه

---

(١٨) ارجع الى : تاريخ ايران باستان (تاريخ ايران القديم) للمرحوم مشير الدولة ، ج ١ ص ١٨٢ ـ ١٨٤ ، ص ٦١١ وما بعدها .

جزيرة البلقان .. تاركة منازلها ومساكنها للجنس الاصفر .

وحين اصبح الايرانيون جيرانا للاواليين والالتائيين ، اخذوا يتذكرون الوقائع التى تمت على يد سكان سيحون وجيحون ، فمحوا من اذهانهم ذكرى السكا ، وانضموا الى الجيران الجدد .

ونجد من المناسب هنا ايضا ان نتحدث عن الاسم تورى Turya فنقول انه فى المقام الاول كلمة من كلمات الافستا نسبة الى تور Tûra وتعنى تورانى .

اما كلمة توران الواردة فى القصص الشعبى وفى التاريخ فهى اسم للبلاد التى كانت تقع فى شمال شرقى ايران . ويرتبط هذا الاسم بأواخر العصر السابق على العصر الوسيط فى تاريخ ايران ، او ربما يرتبط بأوائل العصر الوسيط .

ويعرف دارسو اليهلوية ان الاداة (ان) تستخدم فى تلك اللغة كأداة من ادوات النسبة مع الاشخاص والطوائف ، فيقولون مع الاشخاص مثلا :

وزر كمتر بوختكان ، بهمن سپند داتان ، رام وشتاسيان .

ويقولون مع الطوائف والشعوب :

خوزان ، ديلمان ....

وبناء عليه فان (توران) تعنى ناحية منسوبة الى شعب (تور) .

وقد ورد ذكر اسم قبيلة تور فى الافستا عدة مرات (١٩) .. مقترنا بلقب آسو اسب Asu-aspa اى مالك الجواد السريع ، كما ذكرت باعتبارها عدوة للايرانيين وهذه الكلمة تلفظ عند النسبة : توريه Turya (تورى ، تورانى) . وقد ورد اسم البلاد التى عاش فيها شعب تور ـ أى توران ـ فى الافستا على هذه الصورة : تورين Turyana وكان من بين ابناء هذا الشعب من يعتقدون فى مزديسنا . (٢٠)

ويمكننا الاستفادة من اشارة آبان يشت (٢١) فى تحديد محل سكنى التورانيين ، وتعنى بذلك الاشارة الخاصة بحرب (توس تهم) قائد الجيوش مع شباب أسرة واس (ويسه) الملكية . وقد وقعت تلك الحرب فى ممر (خشتر سوك) على مشارف قلعة كنك . ولو اخذنا بما قاله ماركوارت Mar-quart فى ابحاثه من أن هذه القلعة كانت فى بخارى .. لترتب على ذلك ان يكون موضع سكنى التورانيين هو هذا الجانب من جيحون المحصور بين بخارى وبحيرة خوارزم . ويتفق بطليموس مع ماركوارت فى اعتبار توران نفس خوارزم .

ويساعدنا تحقيق ماركوارت هذا فى الاتجاه الى التفكير فى أن التورانيين فرع من الجنس الآرى الايرانى (٢٢) . كما يجعلنا نحكم بخطأ كل الاشارات الواردة فى المتون اليهلوية

---

(١٩) يشت ١٣ ، البندان ١١٣ ، ١٢٣ ، ويشت ١٧ ، البندان ٥٥ ، ٥٦ .

(٢٠) يسناى ١٢ بند ٤٦ ، فروردين يشت بندهاى ١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٤٣ .

(٢١) البنود من ٥٣ ـ ٥٩

(٢٢) ارجع مقالة الاستاذ مينورسكى (Minorsky) وعنوانها توران ، وذلك فى دائرة المعارف الاسلامية .

وما تلاهـا من اشارات تتعـلق باعتبـارهم اتراكا (٢٣) . وهكذا نفترض قرابة التورانيين للآريين الايرانيين . ونخلص الى أن الشعب الايرانى الذى هاجر الى بلاد ايران واستقر فى المدينة قد طـرد القبائل الآرية الاخـرى التى كانت مازالت تسكن الخيام ، وتهاجم البلاد العامرة المجاورة طلبا للوقت .. وانه ـ اى الشعب الايرانى ـ قد اعتبر هذه القبائل من طينـة غير طينته .

والواقع ان اسـماء الملوك والابطال التورانيين امثال :

فرنجرسين Frangrasyana) فراسياب ، افراسياب (، اغرارثAghraeratha(اغريرث كرسوزدKeresavazda(كرسيوز) ، ارجـت آسب Aredjat-aspa (ارجاسب) بمعنى (مالك الجواد والمنزلة) ، وندر مئى فيشـ Wandere Mainish (وهـو فى الشاهنامة انديرمان) واوسك Vaesaka كلها اسماء آرية ايرانية ، ولا يوجـد ادنـى تشابه بين اسم منها واسم من اسماء الاورال التائيين .

ولم تكن هناك علاقـة جوار أصلا بين الآريـين والايرانيين وبين القبائـل الصفراء الاورالية والالتائية فى عصر تدوين الافستا .

وقد حدث هجوم قبائل السكا وضغطهم علـى الحـدود الشاهنشاهية الاشكانيـة فى اواسط القرن الثانى قبـل الميلاد . ويرجع السبب فى ذلـك الى أن عـددا مـن القبائل الاورالتائية قد غيرت طريـق غاراتها ـ بعد أن أمر « سين » امبراطور الصين بانشاءسور الصين العظيم ـ واصبح هجومها موجها الى الغرب . وقد بدات هذه القبائل الاورالتائية بمهاجمة بعض قبائل السكا من سكان آسيا الصغرى . وكانت بداية الهجمات موجهة من قبل قبائل (يوئه جى) التى كانـت بدورها عرضة لهجوم قبائل الهون (خيونان ، طبقا للتسميـة التـى وردت فى الكتاب البهلـوى آياتكار زريران) التى الحقت بها الهزيمة فى حدود عام ٢٠٠ قبل الميلاد .

وقد اغارت قبائل يوئه چى ـ بعـد فقدان منازلها ـ على حدود أراضى سـيحون الشرقية ، وطردت قبائل السكا نحو الجنوب الغربى . وكان فرهاد الثانى (١٣٦ ـ ١٢٧ ق . م) اول من تصدى لهم من بين الملوك الاشكانيين ، وقد قتل خلال حربه معهم .

وفى غمرة هذه الاحداث اغار السكا على الجهات الغربية من دولة اليونان ، ثم استقروا فى أفغانستان الحالية ، وطردوا يونانيي الغرب نحو كابل ووادى السند . ولم يمض طويل وقت حتى سقطت بقية دولة اليونان الغربية فى أيديهم فكونوا دولة جديدة هندوسكائية تقع بين حدود رُخَّج ووادى السند . كمـا ادت تلك الغارات أيضا الى سكنى قبائل من السكا ـ قدمت من أطراف سيحون وأنحاء جيحون ـ فى مملكة سيستان .

وكان اسم سيستان ـ قبل سـكنى السكا فى شرقى ايران ـ يرد فى الروايات الايرانية على هذه الصورة : زرنك Zaranka

---

(٢٣) ارجع فى هذا الصدد الى :

اولا : مقالة استاذى وصديقى الفاضل « السيدمينورسكى »

ثانيا : دراساتى فى كتاب : « حماسة سرايى در ايران » ، چاپ دوم ١٣٣٣ ص ٦١٣ .

وهو نفس الاسم الذى كان اليونانيون يكتبونه درنكيانا Drangiana . وقد حددوها من الشمال بآريانا (خراسان) ، ومن الشرق بآرخوزيا Arachosia (رخج) ومن الجنوب بـ كدروزيا Gedrosia ، ومن الغرب بكرمانيا Caramania (كرمان) .

اما بعد سكناهم فى شرقى ايران فقد تحولت زرنك (درنكيانا) الى سكستان . وهى نفسها الكلمة التى تطورت فى العهد الاسلامى الى سجستان وسيستان .

والنسبة الى هذه الولاية فى الفارسية (سكزى) سجزى ، اما اسم الولايةالقديمة فقد ظل يطلق على المدينة الرئيسية(سيستان) وحدها ، وهى المدينة التى ظل اسمها لفترة من فترات العهد الاسلامى (زرنج) . (٢٤)

وعلى اثر مجاورة العناصر الصفراء للامبراطورية الايرانية عرف الايرانيون القبائل الاورالية والالتائية على حدود نجد ايران الشرقية ، واطلقوا عليها فى آثارهم الادبية ـ التى يرجع تاريخها الى القرون الميلادية ـ اسم خيون تارة وهفتال تارة اخرى . . واخيرا اطلق عليها اسم الترك . (٢٥)

وفى قصص ايران الشعبية البطولية ـ تلك القصص التى يرجع تاريخ وضعها وتدوينها الى مابعد القرن الثانى الميلادى ـ نسبت كل الاحداث التى جرت بين الشعوب الآرية الايرانية وبين سائر الشعوب الآرية فى جيحون وسواحل سيحون . . الى هذه الاجناس الصفراء بعينها .

ويبدو أن غارات القبائل الصفراءوهجماتها كانت سببا فى الهجرات التى قام بها العديد من طوائف السكا ، وتركها آسيا الوسطى وانضمامها الى زميلاتها فى العنصر ، وسكناها فى سواحل بحر مازندران الشرقيةوالشمالية واقامتها فى الاراضي الواقعة شمالىالبحر الاسود وشماله الغربى .

ذكرنا آنفا ان قبائل آسيا الوسطى الهند أوربية كانت تنقسم الى شعبتين كبيرتين هما السكا والآريين . وتعتبر القبائل الآرية التى نسميها بالهندو ايرانية بمثابة الآباء لشعبى ايران والهند الكبيرين . وكانت تطلق على نفسها لقب (أرى) أى الشجاعة والشريفة . وهذا هو السبب نفسه فى أنه حين عبر قسم من هذه القبائل اراضى (الهندوكوش) واستولى افراده على وادى السند وجزء من اراضى الهندوستان ، اطلق عليه اسم (ارى ورت) Aryavarta (٢٦)

كما انه بعد سكنى القسم الاخر ـ أى القوم الذين كانوا يطلقون على أنفسهم اسم (ائيرى) فى نجد ايران ـ بات يطلق على هذه البلاد اسم (ائيرين) أى بلاد الآريين (بلاد

---

(٢٤) ارجع الى معجم البلدان لياقوت ، تحت كلمةزرنج .

(٢٥) الترك : نفس الكلمة التى استخدمت فىجميع الكتب الفارسية والعربية فى العصر الاسلامى تسمية لسائر قبائل آسيا الوسطى الصفراء .

ارجع الى : تاريخ ادبيات در ايران ، الدكتورصفا ، ح ٢ طهران ١٣٣٦ ، ص ٧٧ وما بعدها .

(٢٦) اطلقت هذه القبائل على تلك البلاد اسم(بهارت ورش) Bharatavarsha او بهارت بهومى Bhârata dhumi اما الايرانيون فقد اطلقواعليها اسم (الهند) .

ارجع الى : سنا : آقاى بور داود ، ج ١ ص ٣٤

الشعب الآرى) (٢٧) . وظل هذا الاسم يستعمل فى عصور ايران التاريخية بأسرها ومازال . وكان يلفظ فى لهجات ايران الوسيطة على هذا النحو اران وارانشتر ، ويلفظ فى اللهجات الحديثة : ايران وايرانشهر .

وقد توقفت هجرات القبائل الآرية الى ايران فى أواسط الالف الثانية قبل ميلاد المسيح .. وبين أيدينا الكثير من الادلة التى التى تثبت هذا الامر ، من بينها ما يستقى من متون الهيتيين .. سكان آسيا الصغرى .

والشعب الهيتى Hittite او Hétèen او Hétheèn يسمى فى اللغة اليونانية ختايوس Khettaios ، وفى السريانيةختى Khati ويشكل أحد شعوب آسيا القديمة التى كانت تسكن المنطقة الواقعة على نهر هاليس Halys وأعالى نهر الفرات فىالعصور التاريخية الموغلة فى القدم . وكان هذا الشعب يخضع فى بعض العصور للامبراطورية الآشورية ، وفى بعضها لفراعنة مصر . وكان يعبد الاوثان ، ويطلق على رب الارباب لديه اسم خاتى Khâti وكان حكامه يسيرونعلى طريقة ملوك الطوائف فى حكمهم ، اما الامراء فكانوا يدينون بالطاعة لملك واحد كبير .

ويؤثر عن الهيتيين أن نفوذهم قد سرى لعدة قرون ، سيطروا فيها على ممالك تابعة لآسيا الصغرى وسوريا ووديان الفراتالعليا، وذلك قبل أن تخضعهم آشور فى القرنالتاسع قبل الميلاد . ولم يحاول الهيتيون استعادة ما سلب منهم ، ولم ينهضوا طلبا للاستقلال وانهاروا بصفة نهائية . والمتون التى نعنيها والتى تنسب الى هذا الشعب ترجع كتابتها الى القرن الرابع عشر قبل الميلاد تقريبا . وقد تم العثور عليها اثناء الحفريات التى أجريت بين الميتانيين ــ سكان شمال بين النهرين ــ وبين الدولة الهيتية .

وفى هذه المتون يقسم الامراء الميتانيون بآلة الآريين امثال (ميثر) (٢٩) Mithra (ورون) Varuma ، و (ايسندرا) Indra اله الحرب لدى الهنود والآريين ــ وناسيتياس Nasatyas وهذا القسم فى حد ذاته يدلعلى تغلغل نفوذ الهند وايرانيين فى فلاة ايران قبل التاريخ المذكور .

وقد تصور البعض ــ بسبب ظهور اسماء هذه الآلهة ــ أن عددا من الهنود أو جيرانهم الذين كانوا يعبدون الفدا قد هاجروا الى آسيا الصغرى وحملوا معهم هذه الاسماء

---

(٢٧) Airyana ايران : تعنى بلاد الآريين (ايريه Airya) . ويجب ان يسمى غير الايرانى : أن ايري (Anairya) ، وان تسمى ما عدا ايران آن ايريـن(Anairyana) .

وكلمة ايرين فى اللهجة البهلوية : اران êrân وفىالفارسية ايران .

وكلمة آن ايرين فى البهلوية تلفظ انيران (بالياءالمجهولة) واذا استخدمت فى الفارسية فانها تقرأ ــ طبقا للقاعدة ــ (انيران) ، باستعمال الياء المعروفة .

(٢٨) بغازكويى Boghazkoi او بغاز كيوئى Boghaz-Keui اسم قرية فى تركيا تقع فى مدينة انقرة (انكارا) . وتوجد اطلال مدينة بتر Ptérium فى المرتفعات المطلة على هذه القرية .

(٢٩) ميثر Mithra هى فى السنسكريتية متير Mitra ، وفى البهلوية متر Mitre وفى الفارسية مهر .

مثير اسم اله من اهم آلهة الدين الافستى . ومدحهذا الاله قائم على جذور هندية وايرانية .. وقد كان فى حد ذاته علة ظهور دين خاص باسم مهر برستى ، اى عبادةمهر Mitraisme . فيما يتعلق ب (مهر) انظر : اقاى پور داود ، يشتها ، ج ١ ص ٢٩٢ وما بعدها .

بينما تصور غيرهم أن المهاجرين كانوا من الآريين الذين وفدوا من جانب بحر مازندان، واحضروا معهم عقائد أجدادهم الهندوايرانيين والرأى الاكثر قبولا والاقرب الى الصواب هو أن الميتانيين قد أخذوا أسماء هذه الالهة عن جيرانهم الجدد الذين كانوا قد ظهروا فى نجد ايران ، ونعنى بهم الآريين الايرانيين ، وكان هؤلاء بدورهم قد ورثوا الاسماء عن أسلافهم الهندوايرانيين .

ويستنتج من ذلك أن الآريين قد ظهروا فى نجد ايران قبل حلول القرن الرابع عشر قبل الميلاد . (٣٠)

وتوالت الهجرات الى ايران عن طريق الشرق والشمال واستمرت فترة طويلة . وأقرب الآراء الى الصحة بالنسبة لما يتعلق بالطريق الذى سلكه الآريون فى هجرتهم الى نجد ايران هو أن مجموعة كبيرة منهم قد وفدت الى ايران عن طريق جيحون . ويجب أن نعتمد فى هذا الصدد على اشارة الافستا الواردة فى (فركود اول وندیداد) * ، حيث يدور الحديث أول مايدور حول خلق (آثيرين واجه) بمشيئة (آهو رمزدا) وقدرته ، ثم ينص على أنه بعد افساد (اهريمن) وتخريبه فى تلك البلاد . استحكم بردشديد ، واصبحت مدة الشتاء ١٠ شهور ، ومدة الصيف شهرين وكان شهرا الصيف بدورهما باردين لهما تأثيرهما القاسى على الماء والارض والعشب . عندئذ خلق اهور مزدا اراضى أخرى مثمرة مثل :

سوغد Sughdha (سغد) ، مورو Mouru (مرو) ، باخذى Bâkhdhi (بلخ) ، نيسابه Nisaya (نسا) بين مرو وبلخ ، هرئو Haraeva (هرات) ، واكرت Vaekereta (كابل) ، أورو Urva وموقعها فى خراسان الحالية ، وخننكت Khnengta فى بلاد وهركن Vehrkana (كركان = جرجان) .

(و (وهركن) هي نفس الاسم الذي ورد فى نقوش بيستون مضبوطا على النحو التالي : وركن Varkana ، ورد فى المتون اليونانية على النحو التالي : هيركانيا Hyreania والرى (رغ Ragha) . (ويرى البعض نتيجة تأثرها بالتفاسير البهلوية أنها نفس المدينة المجاورة لطهران حاليا . بينما يعتقد كيبرت Kiepert ودوهار له De Harlez انها مدينة (راكايا Ragaia) الواقعة فى بلاد (برثو) أي بارث التي أشار اليها بطليموس فى كتابه الخاص بالجغرافيا) .

وعقب هذه الاسماء وردت فى هذا الفركرد أسماء ممالك أخرى تصل الى هتاهندو Haptâhindu . ، أي تشمل قسما من بلاد السند وحدود الهند . وهذه هي النواحي التي هجرها الآريون متنقلين فى أنحائها المختلفة هربا من الكوارث التي كانوا يواجهونها حيث ينزلون .

ويوضح خط السير ان حركة الآريين كانت تتجه من جنوب بحيرة خوارزم حتى خراسان وكابل والسند من جهة ، وتتجه غربا حتى تبلغ غربي كومش (قومس) وحدود الرى من جهة أخرى .

---

(٣٠) ارجع فى ذلك الموضوع بصفة خاصة الى :

كريستن سن : ملاحظاتى در بارة قد يمترين عهودآيين زرتشتى (در مجموعة مزدا برستى در ايران قديم ، ترجمة دكتر صفا ، ص ٢٣ ـ ٢٦) .

* الوندیداد : اسم النسك العشرين في كتاب الزند .

وبناء على بعض الآراء .. فقد استمرت هذه الحركة من المشرق الى المغرب ، وبلغت الاجزاء الوسطى من آذربيجان .

وفى عام ٨٣٦ قبل الميلاد ــ وقت أن كان شلم نسر الثاني يحارب الآريين فى نجد ايران ــ كانت هناك قبائل اخرى باسم بارسوا آ (بالضبط الآشوري) . وكانت هذه القبائل تعيش فى شمال الممالك التابعة للقبائل المادية قبل ان تتجه جنوبا تاركة وديان مغرب ايران ، وتسكن بلاد فارس .

وهناك رأي يؤكد ان طائفتي ماد وبارس قد قدمتا معا الى ايران عن طريق جبال القفقاز ، وبعد أن عاشتا معا فترة من الوقت انفصلتا عن بعضهما البعض .

واستطاعت القبائل الدائبة الحركة أن تطهر الانحاء الشمالية الغربية ، والغربية ، والوسطى ، والشرقية من بلاد ايران ، فتطرد منها سكانها وتحل محلهم .

وكما يبدو من نقش شلم نسر الثاني الملك الآشوري Shalmanassar II فان من سكنوا المناطق المذكورة كانوا ينتمون الى قبيلتي (مادای) Madai و (بارسو آ) Parsua ، وان هذا يرجع الى القرن التاسع قبل الميلاد طبقا للضبط الآشوري . كما يتضح من النقش ان ملك آشور كان فى عام ٨٣٧ ق.م يخضع تلكما القبيلتين لنفوذه ،ويحصل على خراج منهما .

وتجمع الآراء على ان قبائل (مادای) هى نفسها قبائل (ماد) ، اما قبائل (بارسوآ) فان البعض يحكم بأنها نفس شعب بارث (أصلها برثو Parthava) ، بينما يحكم آخرون بانها قبائل (بارس) ، وظاهر الكلمة يؤيد صحة الحكم الثاني (٣١) .

وكانت قبائل بارس ما تزال تسكن فى تلك الآونة شمالي بحيرة (أورمية) .. اي شمالي نفس البحيرة التي ورد اسمها هكذا فى متون الافستا : (جئجست) (٣٢) Tchaêtchasta ، وفى المتون البهلوية : (ججست) Tchêtchast وفى شاهنامة الاستاذ أبى القاسم الفرودسي (جيجست) .

اما الطائفة التي عبرت جيحون ، واختارت انحاء ايران الشرقية والشمالية الشرقية مكانا لسكناها .. فهي نفس الطائفة التي راجت الافستا بين افرادها باللهجة التي كانت متداولة بينهم .

وطبقا للاشارات الواردة فى الكاثات واليشتات القديمة أمثال : مهريشت وآبان يشت ، وبناء على ما ورد فى قطعات اليسنات القديمة التي يعود زمنها برمتها الى ما بين القرنين الخامس والعاشر قبل الميلاد .. (٣٣)

---

(٣١) رسالة كريستن سن بعنوان : ملاحظاتى ،در بارة قديمترين عهودآيين زرتشتى . (ملاحظات حول اقدم عهود الدين الزردشتى) ، وهى الرسالة التىترجمتها ضمن مجموعة « مزدا برستى در ايران قديم » ص ٢٧ ، ٢٨ . (تاريخ ايران باستان) للمرحوم مشيرالدولة بيرنيا ، ج ١ ص ١٦٩ . ويثبت هذا المرجع ان حملة شلم نسر قد كانت فى عام ٨٣٨ قبل الميلاد .

(٣٢) اورميه هى الاسم السريانى لـ « جيجيست »اى الرضائية العالية ، ومعناها المدينة التى على شاطىء النهر ، ويلفظ هذا الاسم فى الآونة الاخيرة خطأ « اروميه ».

(٣٣) فيما يتعلق بتاريخ اليشتات ، انظر :

رسالة (تحقيقات در باب كيش زرتشتى ايرانباستانى) ، تاليف المرحوم آرثر كيستن سن ، التى قمت بترجمتها ضمن مجموعة « مزدا برستى در ايران قديم »(عبادة مزدا فى ايران القديمة) ، ويمكن الاستفادة بصفة خاصة من الفهرست الذى طبع فى ص ١٢٢ .

كان يحكم هذه الطائفة عدد من الامراء المحليين ، يلقب كل منهم بلقب (كوى) أو (كى) .

داولى الكلمتين نصادفها فى اكثر من موضع فى الكاثات واليشتات ، وهي نفسها الكلمة التي تغيرت فى اللغة البهلوية الى كي أو كى بالياء المجهولة ké وهي نفسها التي تغيرت ايضا فى اللغة الفارسية الى كي . واصبحت فى تاريخ ايران بمثابة لقب يطلق على مجموعة خاصة من الملوك بدأ حكمهم بتولية قباد .

وكلمة (كوى) ـ فى الافستا ـ الى جانب كونها لقب لمجموعة خاصة من الملوك ، فانها تعني مطلق شاه وأمير . وقد استخدمها الفردوسي الشاعر فى هذين المعنيين . فنجده فى البيتين التاليين مثلا يستخدم (كى) (٣٤) بمعنى شاه ، وذلك عند حديثه عن أفريدون الذي لم يكن ولا شك عضوا فى سلسلة الكيانيين :

ندانست خود افريدون كجاست
سراندر كشيد وهمى رفت راست

جو آن بوست نيزة بر ديدكى
بنيكى يكى اختر افكند بى

ويقال ان هؤلاء الحكام من الامراء المحليين كانوا يبسطون نفوذهم على رقعة واسعة من الارض ، ويمتد حكمهم فيشمل جرجان ومازندران من جهة ، ووادى السند من جهة اخرى .

والواقع ان ليس بين ايدينا دليل تاريخي يمكننا الاعتماد عليه كلية فى هذا الصدد . ولو اخذنا بما ورد فى الافستا من اشارات ، وبالمعلومات التي نصادفها فى القصص الشعبي الايراني .. لوجدنا ان نطاق نفوذ كاوس (كوى أوسن Kaviusan) أو (كوى اوسون Kavi usdhan) على سبيل المثال كان يمتد الى حدود وادي السند .. لاننا نرى اسمه فى الفدا على النحو التالي :

اوسنس كاوى Usanaskavya (٣٥) .

وطبقا لاشارات الافستا والمتون البهلوية الفارسية فان هذا الملك نفسه قد أغار على بلاد الشيطان المازندرانى . ونستخلص من هذا اللون من الروايات رايا يقول بأن نطاق هجوم الكيانيين كان محصورا بين وادي السند ومازندران . ولا يستبعد ان يكون تقدمهم صوب مازندران قد تم عن طريق شمال خراسان وعن طريق جرجان .

ومهما يكن من امر فان أول ملك ورد ذكره فى الافستا من بين هؤلاء الحكام هو (كوى كوات) (كيقباد) ، واكبر الملوك واعظمهم هو (كوى هئو سروه) (كيخسرو) ، اما آخرهم فهد (كوى ويشتاسب) (كي كشتاسب) ظهير الرسول زردشت وحاميه ونصيره . ويشاهد اسم هذا الملك مرارا فى الكاثات .

وهناك تضارب فى الاقوال فيما يتعلق بالعصر الذي عاش فيه زرتشت . غير ان المحققين قديمهم وحديثهم يجمعون على انه ينحصر بين القرنين الحادي عشر والسادس قبل الميلاد . ومن بين أقوال قدامى المحققين يبرز قول جدير بالاهتمام نادى به خسانتوس الليدي Xanthos de Iydie

---

(٣٤) ادجع فيما يتعلق بلفظ (كى) ومعانيها الى :

حماسة سرايى در ايران ، دكتر صفا ، چاب دوم ، ص ٤٩١ـ ٤٩٣ .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٥٠٩ .

الذي كان يعيش فى القرن الخامس قبل الميلاد . ومن قوله يفهم ان عهد زرتشت سابق على حملة خشارياشا على اليونان بمدة ٦٠٠ سنة ، أي عام ١٠٨٠ ق.م. (٣٦)

ولو ثبت ان ظهور زرتشت الرسول كان قبل مولد المسيح بعشرة قرون لثبت بالتالي ان تاريخ السلسلة الكيانية سابق على هذا التاريخ .

وان مانشاهده فى تاريخ الكيانيين الاسطوري متعلقا بالملوك الذين حكموا بعد « كى كشتاسب » من خلط فى المعلومات لناجم عن تأثر بتاريخ الملوك الهخامنشيين ، كما انه وليد الافكار التي اختزنها الايرانيون فى أذهانهم حول هذه السلسلة عقب حملة الاسكندر. (٣٧)

ونحن لا نملك معلومات كافية عن وضع الآريين فى مشرق ايران قبل عهد الهخامنشيين. والمعروف ان هؤلاء الآريين كانوا ينقسمون الى شعاب عديدة ذات خطر . ولن نحصل على ما نشاء من معلومات الا اذا طبقنا اشارات الافستا على بعض الشواهد التاريخية ، واستفدنا منها فى هذا الصدد .

وتكمن اهمية هذه الطائفة فى ان اكبر مصلح ديني آرياني ايراني قد نشأ فى احضانها بالرغم من الروايات التي تنسبه الى (رك= الرى) و « جئجست = اورمية) . (٣٨)

ونعني بهذا المصلح زرتوشتر سبيتمه Zarathushtra Spitama « مالك الجمل الاصفر » كما يفضل البعض ترجمة اسمه . ويلاحظ ان هذا الاسم يضبط فى البهلوية على هذا النحو : Zaratucht ، وفى الفارسية على هذا النحو : زرتشت ـ زردشت ـ زرتهشت ـ زراتشت . هذا بالنسبة للقسم الاول منه ، اما القسم الثاني ونعنى به (سپى تم) فان معناه العنصر الابيض (سبيد تخمه : البيضة البيضاء) . ويلزم بناء على هذا المعنى أن يكون اسما لاسرة زرتشت ، على النحو الذي كان متبعا فى ايران فى عصر الاڤستا . (٣٩)

وزرتوشتر هو الذي غير عبادة الشياطين الهندوايرانية ـ تلك العبادة التي كانت تمثل أرباب النوع غير المجردة والعوامل الطبيعية المختلفة أو المفاهيم المجسمة المعنوية ـ الى

---

(٣٦) ارجع فى هذا الصدد الى مقالة « زمان زرتشت » ، لاقاى پور داود ، يسنا ، ج ١ ص ٧٥ ـ ١١٠ ، مزدا پرستى در ايران ، ترجمة رسالتى كريستن سن للدكتور صفا ، ص ٢٧ ـ ٣٠ .

(٣٧) انظر : كيانيان Kayanides تاليف Arthur Christensen ، ترجمة دكتر صفا ، تهران ١٣٣٦ ص ١ وما بعدها ، حماسه سرايى در ايران از قد يمترين عهد تاريخى تاقرن چهاردهم هجرى ، جاب دوم ص ٤٨٤ ـ ٤٨٧ و ٥٣٧ ـ ٤٥٨ .

(٣٨) فيما يتعلق بمكان زرتشت اى محل ولادته والبيئة التى نشا فيها وبث فيها دعوته وفيما يتعلق بزمان وجوده .. يوجد نقاش وخلاف . ارجع فى ذلك الى :الكاتها ، للاستاذ ابراهيم پور داود ، ص ٢٣ ـ ٢٦

C. de Harlez, Avesta ; deuxième edition, Paris 1881 Introduction, p. XXIII - XXIV

بناء على المعلومات المستقاة من الافستا يجب ان يكون موضع ولادة زردتشت وحياته ومكان ظهوره وبثه رسالته هو النواحى الشرقية او الشمالية الشرقية لايران .

(٣٩) للاطلاع على بعض آراء العلماء حول معانى هذا الاسم المختلفة ، انظر :

C. de Harlez Manuel de la Iangue de L'Avesta, Paris 1882, p. 445

E. Blochet, Lexique des Fragments de L'Avesta, Paris 1900, p. 73

كاتها : ترجمة آقاى ابراهيم پور داود ، ص ٢٢ ، ٢٣ وغيرها .

عبادة المفاهيم المجردة . ويمكن ان يقال بعبارة اخرى انه احل « مزد يسنا » القريب من التوحيد خلفا « لديويسنا » رفيق الشرك وحليفه .

ولهذه الطائفة اهمية اخرى وهي أنها تضع بين ايدينا المادة الاساسية للتاريخ الاسطوري وللملاحم القومية الايرانية . فقد ورد قسم من تاريخ ايران الاسطوري السابق على العهد الهخامنشي فى واحدة من (نسكلت) الافستا المفقودة ، تسمى (جهردات نسك) . كما بقيت اجزاء هامة منه ايضا وذلك فى النسكات المتبقية من الافستا ، خاصة فى اليسنات والبشتات .

هذا وتشكل حروب أمراء وملوك الطوائف البارثيين بدورها قسما آخر من مادة ملاحمنا القومية . والبارثيين هم الذين ذاعت شهرتهم بعد العصر الافستى (العصر الزردشتى) .

وقد ربطت اذهان واضعي القصص الايرانيين بين اخبار معارك أمراء وملوك الطوائف وبين حوادث العهد الافستى واخبار ابطاله ، واضافت الى ذلك بقايا المعلومات الخاصة بتاريخ الملوك الهخامانشيين وسيرتهم ، وعن هذا الطريق برزت الى الوجود القصص المدونة المعونة :

خد اينامه ها (الالهيات أو كتب الالهة) ، شاهنامه ها (كتب الملوك) (٤٠)

أما بالنسبة لتاريخ ايران المدون غير الاسطوري ـ على النحو الذي كتبه اليونانيون والروم والآراميون والارمن ـ وهو الذي تؤيده النقوش ، وتعززه الاشارات الواردة فى كتب العهد القديم ، وبعض الآثار التي اكتشفت فى ايران وما جاورها من ممالك . . فان هذا التاريخ يبدأ بايرانيتى المغرب والجنوب . . أي الطائفة التي سلكت طريق جبال القوقاز الى مفازة ايران ، ثم انقسمت الى فرق كالارانيين والماديين والبارسيين ، وخضعت للدولة الآشورية فترة من عمرها .

وقد سكنت قبائل ماد ـ وهي احدى القبائل الآريانية الغربية ـ فى الولايات التي كانت تبدأ من (الرى) وتتقدم نحو المغرب شاملة مرتفعات زاجروس ، كما تتقدم نحو الطرف الشمالي والشمالي الغربي بالغة حدود نهوكورا . وهذه المنطقة هي نفسها المملكة التي تعرف باسم ماد الكبرى . واكبر مدنها مدينة (هك متان) ، وهي نفس المدينة التي كان الآشوريون يسمونها (آمادانا) ، ونسميها نحن الآن (همدان) .

وبين أسوار هذه المدينة العتيقة نفسها وضعت نواة دولة تاريخية لايران الغربية والوسطى ، وقد وضع هذه النواة (ديا اكو) عام ٧٠٨ قبل ميلاد المسيح .

وقد تمكنت دولة ماد خلال قرن ونصف من سيطرتها ـ اثر انقراض الدولة الاشورية القوية ـ من تأسيس امبراطورية واسعة مترامية الاطراف ، كانت تمتد من جنوب ايران حتى تشمل قسما من أراضى آسيا الصغرى . وبناء على هذا يمكن القول بأن القبائل المادية لم تلفت نظر القبائل الآرية الايرانية المتناثرة الى الدول المستقلة المستقرة المتمركزة فحسب ، بل انها أول القبائل الايرانية التى بسطت حكمها خارج اراضى الآريين الايرانيين ، وعلمت من يشاركونها العنصر والاروما كيفية تشكيل الامبراطوريات .

---

(٤٠) قمت ببحث مفصل للغاية فى كتاب « حماسة سرايى در ايران » كفتار جهارم ، تحت عنوان « بنياد داستانهاى ملى » الطبعة الثانية ص ٣٩٢ ـ ٦٢٩ ... حول اساس التاريخ والقصص الشعبى البطولى الايراني ، فليرجع اليه الراغبون .

وتصل المدة مابين العام الذى وضع فيه الماديون حجر الاساس فى امبراطورية ايران ـ وسط ايران ومغربها ـ وبين زماننا هـذا الى ٢٦٦٨ سنة . كما تبلغ المدة الواقعة بين التاريخ الذى اسقط فيه (هو وخشتر) ملك الماديين الامبراطورية الآشورية فى عام ٦٠٥ قبل الميلاد وبين عصرنا الحالى ٢٥٦٥ عاما . وطبقا لما ذكره هيرودوت فان أسماء ملوك ماد تسير على النحو التالى :

ديوكس ـ فرا ارتس ـ كياكسارس ـ آستياكس .

غير أن الفهرست الذى ورد فى كتابات كتزياس أكثر تفصيلا ، ويشتمل على ١٠ملوك يبلغ مجموع سنوات حكمهم ٣٥٠ سنة . ولو قبلنا هذه الرواية لقبلنا ان يكون تاريخ حكم سلسلة ماد الحقيقى قد بدأ منذ عام ٩٠٠ ق . م .

وقد انهارت الامبراطورية المادية بعد ١٥٨ عاما من تأسيسها . ويرجع السبب الرئيسى فى انهيارها الى انعدام التشكيلات المنظمة والتنسيق بين جهاز الدولة والبلاط ، كما يرجع الى ضعف الجنود وفتورهم اثر ثرائهم ، والى الفرقة والشقاق والخلاف بين قواد الدولة انفسهم .

وازاء هذه الحالة ، هبت طائفة أخرى تابعة لقبائل ايران الغربية مستهدفة حمل راية العنصر ومواصلة المسيرة . وهى نفس الطائفة التى كانت قد حررت قسما من جنوب ايران ـ منذ مدة ـ واستخلصته من أيدى سكانه . اما القبائل التى تتبعها فهى قبائل بارس ذات الاقسام العشرة .

ويبلغ بنا الحديث الاسرة الهخامنشية . وهى أسرة تنحدر من قبيلة فارسية كبيرة . وتنسب الى الجد الاكبر للأسرة ويدعى « هخامنش » الذى انحدرت من صلبه سلسلة ملوك فارس وانزان .

وقد حكم البلاد ـ ابتداء من جا اش پش الثانى حتى هخامنش ـ خمسة ملوك (٤١) . ويرد فى كتب التاريخ ان كوروش ينتمى الى الفرع الانزانى بينما ينتمى داريوش الى الفرع الفارسى .

ويؤكد هيرودوت ان القبيلة الفارسية التى ينحدر منها الهخامنشيون كانت تنقسم الى ست طوائف تقيم فى المدينة ، وعشر طوائف تقيم فى القرى ، واربع طوائف تقيم فى خيام بالصحراء .

وحين سيطر « كوروش الاكبر » بن « كمبوجيه » بن « كوروش » بن « چا اش پش » سليل الأسرة الهخامنشية واحد أبناء قبيلة بارس ـ على (هكمتان) فى عام ٥٥٠ قبل الميلاد ، خضعت امبراطورية ماد القوية ، واخلت مكانها للامبراطورية الهخامنشية ، فبسطت نفوذها على الاراضى الواسعة المحصورة مابين وادى السند والبنجاب وفلاة سفوح بامير الغربية وبين اليونان وقرطاجنة . وظلت تسيطر على دنيا العالم المتحضر تخضعها لنفوذها مدة ٢٢٠ سنة تقريبا ، اذ استمر سلطانها نافذا من اواسط القرن السادس حتى اواخر القرن الرابع قبل ميلاد المسيح .

ووفى هذه الفترة التى تدعو الى الفخار .. حكم العالم المتحضر ملوك كبار امثال كوروش الاكبر وداريوش الاكبر وخشايارشا واردشير درازدست (او دراز انكل) .

---

(٤١) وذلك بناء على الشجرة التى رتبها نولدكه Noldeke فى التاريخ الفارسى . انظر : مشير الدولة بيرنيا ، چاپ اول ، ١٣٠٦ ، ص ٨٠ .

ويشتهر الاخير بين المؤرخين بانه تزوج من ابنتيه : (آتس سا) و (آمس تريس) ، ويلقبه اليونانيون منهم : ماكرو خثير Makroxeir والرومانيون منهم : لونكى مانوس Longimanos .

وقد ورد اسمه فى كتب التاريخ الاسلامية على هذا النحو : بهمن الملك الكيانى المدعو أردشير ، والملقب بطويل اليدين أو طويل الاصابع . ويقول البيرونى : اردشير بهمن ، واسمه فى كتب أهل المغرب ارطخشست ، ولقبه طويل اليدين . ونجده فى بعض المواضع يسميه (مقدوش) . وهذا الاسم ولا شك صورة محرفة للاسم ماكرو خثير اليونانى . اما ابن النديم فيسميه احيانا : طويل الباع . (٤٢)

وقد وجد شعب ايران الآرى فى ظل نفوذهم فرصة سانحة لنشر ثقافته وحضارته بصورة محسوسة ملموسة . كما وجد الفرصة للقضاء على كثير من العادات الهمجية غير الانسانية التى كانت سائدة فى الدنيا القديمة من قبيل سلب البلاد، وقتل العامة، وتخريب المعابد ، وفرض عقائد المنتصرين المذهبية على المهزومين ، وذبح الآدميين وتقديمهم قربانا للاصنام وأرباب النوع .

وهكذا نشأت فى العالم ـ لأول مرة ـ تشكيلات امبراطورية منظمة قائمة على قوانين مقننة مدونة ، تطبق على كافة ممالك الامبراطورية بصورة واحدة . وكان من مميزات الامبراطورية الهخامنشية : اطلاق الحريات ، احترام العقائد والاديان ، والافادة من جهود الشعوب فى البلاد المفتوحة ، وتوجيهها لصالح الامبراطورية فى شتى المرافق . وانتصر الاسكندر المقدونى ، ولقبه الايرانيون ـ قبل الاسلام ـ بـ (المخرب) ، واطلقوا عليه لفظ (كجستك) أى الملعون(٤٣) واذا كان البعض ـ بعد الاسلام ـ قد رفعه الى مرتبة الرسول ، وخلط بين قصته وقصة ذى القرنين ، وانزل كتبه الفارسية المنظومة والمنثورة واصولها العربية منزلة الحكمة العالية والنبوة السامية (٤٤) . . فان الفردوسى قد اتهمه بالتخريب ، وسوء الذكر ، وتنبأ له بالخلود فى النار شأنه شأن الضحاك وافراسياب . يقول الفردوسى ذاكرا اعمال الضحاك وافراسياب السيئة :

نكه كن كه ضحاك بيدادكر
چه أورد از آن تخت شاهى بسر
هم افراسياب آن بداندیش مرد
كزو بد دل شهرياران بدرد

وبعد أن ينعت أولهما بالظلم وينعت ثانيهما بسوء الظن يقول فى حق الاسكندر :

سكندر كه آمد برين روزكار
بكشت آنكه بد درجهان شهريار

والمعنى ـ الاسكندر الذى قدم فى هذا العهد ، فقتل فى الدنيا كل ماهو عظيم .

ثم يقول فى حق الثلاثة :

برفتند وزايشان بجزنام زشت
نما ند ونيابند خرم بهشت

---

(٤٢) انظر : مجمل التواريخ والقصص ، طبع طهران ص ٣٠ ، رسالة البيرونى فى فهرست كتب محمد بن زكريا ، طبع باريس ١٩٣٧ ، ص ٢٣ ، ١٤ ، الفهرست لابن النديم ، طبع مصر ص ٣٤٤ ، الآثار الباقية للبيرونى ص ١١١ ، ١٠٥ .

(٤٣) ارجع الى الفصل ٣٣ من كتاب بند هشن ، والى مقدمة كتاب ارداى ويرافنامك ، والى مجمل التواريخ والقصص ص ٤١٨ .

(٤٤) انظر : حماسة سرايى در ايران ص ٣٤٣ ـ ٣٥٣ ، مقالة داستان اسكندرى لذبيح الله صفا ، بمجلة اموزش وپرورش .

والمعنى ــ ذهبوا ولم يتركوا وراءهم سوى الذكر السيء ..

وسوف لايكون مآلهم الجنة ، ولن ينعموا

وفى البيت التالى من أبيات الشهنامة :

نخست اندرآيم زسلم بزرك
زاسكندر آن كينه وربير كرك

يصف الفردوسى الاسكندر بأنه حاقد منتقم وذئب عجوز .

وفى البيت التالى :

هيونى ذكر مان بيامد دمان
بنزريك اسكندر بد كمان

يقول فى حق الاسكندر :

وجاء أحد الرسل مسرعا صوب الاسكندر سيء الظن .

والحق أن انتصار الاسكندر وفتح تخت جمشيد عام ٣٣٠ ق . م . لم يكن هزيمة لكل آريى ايران . فبعد وفاة الاسكندر بسبع وستين عاما ، أى فى عام ٢٥٦ ق . م . رفع (اشك الاول) علم الاستقلال فى پرثو (٤٥) أى فى خراسان ، وتمكن أعقابه من أن يخضعوا بسرعة كل انحاءايران، وان يطردواالسلوقيين ــ الذين بقوا بعد « سلوكوس نيكاتور » ــ من غربى ايران الى نواحى سوريا وفلسطين.

وسلوكس نيكاتور Sèleucos Nicator هو قائد جيوش الاسكندر الملقب بنيكاتور أى الفاتح . ولد فى عام ٣٥٤ ق . م تقريبا ، وتوفى فى عام ٢٨٠ ق . م .

وقبض على زمام الامور فى بابل وحكمها بعد وفاة الاسكندر بمدة قصيرة (٣٢٠ ق . م) وحين عزله آنتى كون Antigone والى كيليكيه من منصبه هذا فى عام ٣١٥ق.م صحب بطليموس وعددا آخرمن قادةالاسكندر وتمكن بمساعدتهم من الانتصار على أعدائه ، وفتح غزة عام ٣١٢ ق . م ، واستعادة حكم بابل الاستقلال بها .

كما تمكن بعد فترة من الاستيلاء على ولاية شوش وعلى مادى وكل الممالك المحصورة بين الفرات والسند . وفى عام ٣٠٧ ق . م . أطلق على نفسه لقب سلطان . ثم فتح بين النهرين وارمنستان فريكيه وسورية .. وهكذا اسس السلسلة السلوكية (السلوقية) Séleucide .

وكانت السلسلة السلوكية (السلوقية) تستقر بادىء الأمر فى بابل ، ثم استقرت فى سلوكية (سلوقية) التى كانت تقع عند بغداد ، وبعدها استقرت فى انطاكية .وكانت تخضع لسلطانها أول الامر قسما من ايران . ومنذ عهد « آنتيوخوس الثانى » ــ حفيد سلوكوس ــ نشأت الدولة الاشكانية ، وكان مقرها مملكة خراسان . وارتقى أمرها سريعا وبلغت من القوة حدا أن استطاعت فى عهد مهرداد الاول (أشك السادس) وفرهاد الثانى (أشك السابع) أن تنتزع ايرانبأسرها من يد السلوقيين ، وان تكف يدهم عنها ، وتزيل سلطانهم منها نهائيا .

وهكذا انتهى حكم اليونانيين فى ايران ، وكان آخر ملك سلوكى يحكم قسما من ايران الغربية هو « أنتيجوس السادس » الذى طوى بساط حكمه فى عام ١٢٩ قبل الميلاد على يد فرهاد الثانى .

---

(٤٥) پرثو (پرثَف) Parthava هى نفس الكلمةالتى اشتقت منها فى اللغات الاوروبية كلمة parthe ، وهى نفسها التى صارت أصل الكلمات پهلو ، پهله ، پهلوان ،پهلوى ، پهلوانى .

وقد حكم ايران مابين آشك واردوان ـ فى الفترة مابين عامى ٢٥٦ ق . م ، ٢٢٤ م وهى فترة تبلغ اربعمائة وثمانين عاما ـ ٢٨ ملكا بارثيا . ومن بين هؤلاء الملوك تبرز أسماء يعد أصحابها مفخرة للجنس الآرى الايرانى ، أمثال :

مهرداد الاول (اشك السادس) (١٧٣ ـ ١٣٧ ق.م) .

فرهاد الثانى (اشك السابع) (١٣٦ ـ ١٢٨ ق . م) .

مهرداد الثانى (١٢٤ ـ ٨٧ ق . م) ، ارد الاول (٥٥ ـ ٣٧ ق . م) .

فرهاد الرابع (٣٧ ـ ١ ق . م) .

وفى عهد الامبراطورية الاشكانية تحررت الثقافة الايرانية ، وتجاوزت مرحلة الخطر وبدأت فى فرض وجودها بعد أن تضاءلت امام نفوذ الثقافة اليونانية زمنا ، واصبحت اللغة البهلويةالشمالية او البهلوية الاشكانية ـ بخطها الخاص المقتبس من الاصل الآرامى ـ لغة البلاد الرسمية ، وبها ألفت بعض الآثار المنثورة والمنظومة ، مازال بعضها بين أيدينا. فمن الآثار الهامة التى تنسب الى أواخر عهد الاشكانيين كتاب (اياتكار زريران) وكتاب (درخت آشوريك) . وقد ثبت فى الآونة الاخيرة انهما منظومان (٤٦) .

ومن أجل الخدمات التى قدمها الاشكانيون للشعب الايرانى ـ بالاضافة الى طرد اليونانيين وتحقيق الاستقلال ـ دفاعهم البطولى عن الحدود الغربية والشرقية ضد الرومان والمغيرين من الجنس الاصفر . ولو أن هذه السلسلة لم تأخذ على عاتقها ـ خلال فترة حكمها التى استمرت اربعمائة سنة ـ عبء الدفاع عن ايران فى الشرق والغرب . لوطئت بلادنا ولاشك اقدام الجنس الاصفر من الاورالييين والالتائيين أو الرومان ، ولوجدت فى هذه البلاد حضارة وثقافة من لون آخر .

وقد حالف التوفيق الأباطرة الاشكانيين فى فتوحاتهم حتى آخر سنوات حكمهم ، فكان النصر دائما نهاية كل لقاء بينهم وبين الروم المهرة المحنكين ، وكانت الغلبة لجيوشهم على جيوش الروم المتمرسة بالقتال . حتى انه يمكن القول بأن الامبراطورية الاشكانية عند سقوطها وزوالها لم تكن قد ضعفت بعد من حيث الفتوحات الخارجية ، فقد تم آخر فتح من فتوحات الاشكانيين وآخر انتصار لهم على الروم فى عهد أردوان ، وذلك فى حدود عام ٢١٨ م . وكما نعلم ، فان السلسلة الاشكانية قد انقرضت بعد هذه الواقعة بست سنوات .

وقد انقرضت الدولة الاشكانية عام ٢٢٤ ميلادية ، على اثر هزيمة « اردوان » على يد « اردشير بن بابك » . ولم يكن انقراضها فى الحقيقة سوى حادثة داخلية وانتقالة حكومية من طوائف ايران الشرقية الى البارثيين ، وتغيير حكومة ملوك الطوائف اللادينية ، واحلال حكومة دينية مركزية فى مكانها .

وقد سار الساسانيون على سياسة الاشكانيين ، وحذوا حذوهم فى الدفاع عن الحدود الشرقية والغربية فى بطولة وبسالة ، واستطاعوا بما لديهم من تشكيلات منظمة مدنية وعسكرية ان يجعلوا حدود البلاد تضارع الحدود التى بلغتها الامبراطورية الهخامنشية .

---

(٤٦) فيما يتعلق بكتاب اياتكار زريران يمكن الرجوع الى : سلسلة المقالات التى نشرها الكاتب فى مجلة سخن ، السنة الاولى ، حماسة سرايى در ايران ، الطبعة الثانية ، ص١٢١ ـ ١٣١ .

ويعد كل ملك من مشاهير ملوك الساسانيين امثال :

أردشير بن بابك (٢٢٤ ــ ٢٤١ م) ، شابور الاول (٢٤١ ــ ٢٧١ م)

شابور الثانى (٣١٠ ــ ٣٧٩ م) ، بهرام الخامس (بهرام كور ٤٢٠ ــ ٤٣٨ م)

قباد الاول (٤٨٧ ــ ٥٣١) ، خسرو الاول انوشيروان (٥٣١ ــ ٥٧٩ م)

خسرو الثانى ابرويز (٥٩٠ ــ ٦٢٧ م)

... يعد كل واحد من هؤلاء الملوك ــ لسبب من الاسباب ــ صاحب سيرة محمودة ومقام رفيع واثر وخطر فى تاريخ البلاد خاصة وفى آسيا عامة . كما تعتبر الخدمات التى قدمها بعضهم للعلم والأدب خدمات جليلة لا تنسى.

ولا بأس هنا من ذكر معلومات حول بعض هذه الاسماء وكيفية نطقها . فالاصل الذى ورد فى الافستا بالنسبة لاسم « قباد » على سبيل المثال هو كوات (كفات Kavata وهو يلفظ فى البهلوية كوات (كفات Kavat) لذا يجب أن يضبط ويشكل فى الخط الفارسي الجديد (قباد) بفتح القاف . ونطقه بضم او له ، او كتابته بالغين (غ) امر بعيد عن الصواب .

أما « انوشروان » فانها التسمية الفارسية لانوشك روان (روڤان ــ Anoshak ruvân أى الروح الخالدة .. وهى عبارة تستعمل عادة عندما يذكر أحد بالخير ، أو عندما يوجه الدعاء للموتى .

وتتكون (انوشك) من (أ) حرف نفى ، (أوش Osh) بمعنى الموت ، ومن حرف النون الذى كان يأتى عادة من اللهجات الايرانية القديمة بين حرفين مصوتين للربط بينهما ، (مثل : آنيران بمعنى غير ايران ، حيث جاءت بين حرف النفى (أ) وبين كلمة ايران (نون)) . وقد وردت (هوش) فى اللغة الفارسية بمعنى الموت أو الروح أو قوة الادراك والفهم .

ففى المعنى الاول يقول الفردوسى :

ورا هوش در زاولستان بود
بدست بل پور دستان بود

وهو يعنى ان موت اسفنديار قد كان فى (زابلستان) ، وهنا هوش بمعنى الموت .

وفى المعنى الثانى يقول الفردوسى :

مبربيش بيل زيان هوش خويش
نهاده برين كونه بردوش هويش

وهو يعنى هنا الا تعرض روحك للهلاك امام فيل مخيف متوحش ، وهنا هوش بمعنى الروح .

وقد تحولت كلمة (انوشك) فى الفارسية الى (آنوشة) .

اما ruvan فأصلها فى الأفستا (أورون Urwan والفارسى منها (روان) . انوشة روان ، انو شروان ، انو شيروان ، نوشيروان ، نوشين روان كلها صور فى اللغة الفارسية مشتقة من الاصل البهلوى انوشك زوان .

واذا تعرضنا لكلمة ابرويز وجدناها تعنى: غير قابل للهزيمة لايقهر . وكانت هذه الكلمة تستخدم بصفة دائمة كلقب لخسرو الثانى الشاهنشاه الساسانى . ومعرب الاسم ابرويز ، والالف فيه (أ) تفيد النفى ، وقد حذفت فى الفارسية الدرية ، وقيل پرويز .. نتيجة للجهل بأصل الاسم ومعناه ، ونتيجة للاعتقاد بأن الالف فى أول الاسم تشكل جزءا منه (من بنية الكلمة) .. بينما الاسم بهذه الصورة ــ أى بعد حذف الالف ــ يعنى تماما عكس معنى (اپرويز) .

ووفى نهاية هذا العهد .. لم يكن للهجتين: البهلوية الشمالية والبهلوية الجنوبية رصيد كبير فى المؤلفات المنظومة والمنثورة دينية وغير دينية فحسب ، بل انهما احرزتا تقدما وانتصارا كبيرين فى ميدان العلوم اثر امتزاج ثقافات الايرانيين وعقائدهم بثقافات وعقائد كل من اليونانيين والاراميين والرومانيين والهنود .

وفى القرون الخامس والسادس والسابع الميلادية ، وحتى انتصار العرب ، كانت هناك فى ايران مراكز زرتشتيه ومانوية ومسيحية ويهودية .. وكان كل مركز من هذه المراكز مشغولا ـ بصورة من الصور ـ بنوع من انواع العلوم كالحكمة الايرانية او الخسروانية ، الفلسفة الافلاطونية ، المنطق ، العلوم الارسطوية ، الطب ، الرياضيات ، النجوم .. وغيرها .

وقد دخلت اكثرية هذه المدارس فى عداد المراكز العلمية الاسلامية .. بعد انتصار الاسلام أو بعد التحول من اللغتين البهلوية والسريانية الى العربية . ونجم عن انتقال اغلب علماء هذه المراكز الى بغداد أول عصر من عصور النهضة العلمية فى هذه المدينة.(٤٧)

ولقد تيسر للعرب الانتصار على الايرانيين فى ضوء نور الاسلام ، ونتج عن هذا أن استمر النزاع والصراع بين الدين الاسلامى وغيره من الديانات الشائعة فى ايران آنذاك، ونعنى بها الزردشتية والمانوية والمزدكية والمسيحية واليهودية والبوذية . (٤٨) وظل النزاع والصراع قائمين طوال قرون أربعة كان فيها النصر حليف الاسلام ، والضعف والوهن من نصيب الاديان المذكورة .

وفى سرعة عجيبة ، تسلل عدد من عظماء ايران وصفوتها المختارة الى الاجهزة الدينية فى حكومات الخلفاء ، وتغلغل افراد الشعب الايرانى فى مختلف اجهزة الدولة . وشغلوا العديد من المناصب ، فكان من بينهم الوزراء، ومستشارو الدولة ، والقواد والكتاب ، والعلماء المشتغلون بشتى الفنون والشعراء ، ومشاهير المؤلفين . وبتعبير آخر فان شعب ايران قد استعاض عن هزيمته السياسية والدينية بالفتح الثقافى والعلمى . حتى ان كثيرا من المذاهب الدينية والفرق الاسلامية كانت وليدة افكار البحاثة الايرانيين واجتهاداتهم ونتاج آرائهم بالنسبة لمعتقدات الدين الاسلامى وفروعه ، او كان للفكر الايرانى فضل المساهمة فى ايجادها . ومن هذه الفرق على سبيل المثال :

الجهمية : نسبة الى جهم بن صفوان من موالى خراسان ، الكعبية : نسبة الى ابن القاسم الكعبى البلخى ، البهشمية : نسبة الى ابى هاشم الجبائى الخوزستانى ، الكرامية : نسبة الى محمد بن كرام السيستانى ، الرزامية ، ابو مسلمية ، الروندية ، المقنعية (المبيضة ، بيض الثياب ، وهم اتباع عطاء او هاشم او هشام بن حكيم المعروف بالمقنع) ، القرامطة ، الاسماعيلية ، الدرزية ، وبعضها من فرق الشيعة الغالية والشيعة الامامية . كما ان بعضها يتبع مذهب اهل السنة الفقهية كالحنفية والداودية والطبرية وغيرها وغيرها.

وتشكل جهود الايرانيين فى سبيل تحقيق الاستقلال السياسى واحياء اللغة والادب القومى قصصا شيقة يضيق المقال عن ايرادها وقد ولج ابطال هذه المعركة القومية وفرسان

---

(٤٧) ارجع فى ذلك الى : دانشهای یونانی در شاهنشاهی ساسانی (العلوم اليونانية فى الامبراطورية الساسانية) للدكتور صفا ، تاريخ علوم عقلى درتمدن اسلامى ، الطبعة الثانية ، تهران ١٣٣٦ ، ص ١٠ ـ ٢٦ ، تاريخ ادبيات در ايران ، للدكتور صفا ، ج ١ ط ٣ تهران ١٣٣٨ ص ٩٤ ـ ١٠٧ .

(٤٨) تاريخ ادبيات در ايران ، ص ٦٣ ، ٢٣٠ ـ ٢٣٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

هذه الحركات التحررية ميدان الكفاح بطرق مختلفة وصور متعددة ، فولجه بعضهم عن طريق الترجمة ونشر الكتب التى تخص بالذكر مفاخر ايران ومآثرها . وولجه البعض عن طريق اشعارهم العربية المحركة للقلوب وما تشتمل عليه من مفاخر ومآثر . وكان هؤلاء المؤلفون والمترجمون ينتمون عادة الى فرقة الشعوبية التى تنادى بتفضيل العجم على العرب . وكانت مؤلفاتهم فى اثبات هذا الرأى ، وترجماتهم العديدة للكتب التى تدور حول سير الملوك نابعة من تأثرهم بهذه الفكرة كما كان تأليفهم للشاهنامات ونظمهم لها ناجما عن هذه الفكرة ذاتها .

ومن بين الشعراء الذين نشطوا لبيان مفاخر الايرانيين العنصرية .. يمكننا ان نذكر الاسماء التالية :

اسماعيل بن يسار ، بشار بن برد (م١٦٧) ابا نواس حسن بن هانىء (١٤٥ ــ ١٩٩) ، المتوكلى ابا اسحق ابراهيم بن ممشاذ الاصفهانى ، وامثالهم .

كما ولج البعض هذا الميدان عن طريق تدبيج المقالات الدينية ، والبعض عن طريق اللجوء الى السيف والثورات العسكرية . (٤٩)

واذا حسبنا المدة التى انقضت بين اليوم الذى انهار فيه الكفاح العسكرى الايرانى المنظم أى فى عام ٢١ هـ ، وبين اليوم الذى دخلت فيه جيوش « ابى مسلم الخراسانى » (٥٠) الفاتحة الكوفة لاجلاس الامام العباسى «عبدالله السفاح » على عرش الخلافة مكان مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين .. لوجدناها ١١١ عاما .

وبعد ست وستين عاما من تاريخ الحدث الاخير ، أى فى عام ١٩٨ هـ ، فتح « طاهر ذى اليمينين » (٥١) بغداد عاصمة العباسيين بعد محاصرتها ، وتمكن من قتل الخليفة العباسى .

وفى المدة المحصورة بين التاريخين الاخيرين قامت عدة ثورات ، من بينها : ثورة القائد فيروز الشهير بسنباد كير فى الرى (٥٢) عام ١٣٧ هـ ، ثورة استاسيس فى خراسان (٥٣) عام ١٥٠ هـ ، وثورة المقنع هشام ابن حكيم (٥٤) فى ما وراء النهر سنة ١٥٩ هـ

وفى عام ٢٠١ هـ . هب بابك خرم ديني (٥٥) فى بغداد مقاوما جيوش الخليفة ، بينما شغل مازيار بن قارن (٥٦) (م ٢٢٤ هـ) فى مازندران بمقاتلة الموالين للخلافة العباسية

---

(٤٩) فيما يتعلق بكيفية مقاومة الايرانيين ، انظر : دكتر صفا ، نهضت ملى ايرانيان ، مجلة ارتش ، سال ششم .

(٥٠) يمكن معرفة الكثير عن ابى مسلم الخراسانى بالرجوع الى مقالة الكاتب ، وعنوانها : أبو مسلم الخراسانى ، وذلك فى مجلة (آرتش) ، سال هفتم (السنة السابعة) .

(٥١) بالنسبة لطاهر ذى اليمينين ، يمكن الرجوع الى مقالة الكاتب ، مجلة ارتش سال نهم (السنة التاسعة) ، شمارة ١ ، ٢ (بالعددين الاول والثانى) .

(٥٢) دكتر صفا ، مجلة آرتش ــ سال هشتم (السنة الثامنة) : سپهبد فيروز .

(٥٣) دكتر صفا ، مجلة آرتش ــ سال هفتم (السنة السابعة) : استاسيس .

(٥٤) دكتر صفا ، مجلة مهر ــ سال چهارم (السنة الرابعة) سمارة ١٢ (العدد ١٢) ، شمارة اول سال بنجم : نقابد ارخراسان ، مجلة آرتش ، ــ سال هشتم (السنة الثامنة) : المقنع .

(٥٥) دكتر صفا ، مجلة آرتش شمارة ٨ ، ٩ ، ١٠ سال هشتم : بابك خرم دين .

(٥٦) دكتر صفا ، مجلة آرتش شمارة ٢ ــ ٧ سال نهم (السنة التاسعة) : مازيار پسر قارن .

في بغداد . وكان الخوارج في سيستان وفي خراسان دائمي الثورة بدورهم ، يقودهم المقاتلون أمثال حمزة بن آذرك شاري (٥٧) .

سارت حكومة الخلفاء في ايران في طريق الوهن والضعف .. في الوقت الذي كانت فيه امارات ايران المحلية تستقيم على طريق الحياة من جديد . فكان أبناء طاهر ذي اليمينين يواصلون استقلالهم الداخلي في خراسان . اذ أخذ طاهر بن الحسين من المأمون (في عام ٢٠٥ هـ) تفويضا بحكم كثير من نواحي ايران . وظل أعقابه يشغلون كرسي الحكم بعد موته الى عام ٢٥٩ هـ . اما سيستان فكانت قد انتزعت فعلا من بين الممالك التابعة للخلفاء العباسيين . (٥٨) وكانت نواح واسعة من جرجان ، ومازندران ورويان وبلاد الديلم وكيلان تدار بواسطة الامراء المنحدرين من صلب الاسر القديمة التي بقيت عن العهد الساساني (٥٩) . وقد استمال هؤلاء اليهم ـ في عام ٢٥٠ هـ ـ واحدا من صلب علي بن أبي طالب، يدعى حسن بن زيد ، ونصبوه اماما دينيا على الرغم من الخلفاء العباسيين . (٦٠)

ولم تخل آذربيجان وأران وشروان والاراضي الجبلية التي تقع جهة الجبال من الفتن والثورات بدورها ، وسقطت ما وراء النهر هي الاخرى في يد اعقاب « سامان خدا » منذ عام ٢٠٤ هـ تقريبا ، وتحولت بسرعة الى عاصمة ومركز للدولة السامانية الكبيرة . اما خوارزم وغور وغرجستان فكان يقبض على زمام الامور فيها عدد من الامراء المحليين .

من هذا يمكننا ملاحظة ان نفوذ الخلفاء وحكمهم في ايران خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين كانا في أغلب الاحوال اسميا اكثر منه رسميا . وهذا نفسه احد اسرار بقاء الثقافة الايرانية .

وفي اعقاب الجهود التي بذلت حتى أوائل القرن الثالث في سبيل استعادة ايران لاستقلالها خرج يعقوب بن الليث السيستاني على الخلافة وولى وجهه ـ بصحبة محاربي سيستان ومقاتليها ـ شطر بغداد فاتحا . (٦١)

ويعقوب بن الليث واحد من اكبر رجال ايران العسكريين والسياسيين الذين ثاروا في مشرق ايران بعد أبي مسلم الخراساني ، وكان حكمه نقطة تحول بالنسبة لمسار الادب الفارسي ، فقد منح هذا الادب الاستقلال عن طريق تحريم الشعر العربي في دولته، وتشجيع الشعراء على نظم اشعارهم بالفارسية . كما ان اللغة الفارسية الدرية قد تحولت في عهده الى لغة بلاطات المشرق الرسمية ، وباتت الكنز الرئيسي الذي يثري خزانة الادب الفارسي .

وظلت الحكومة التي أقامها يعقوب بن الليث باقية من بعده ، يتولى زمام الامور فيها اخوته

---

(٥٧) دكتر صفا ، مجلة مهر ـ سال نهم ـ شمارة ٨ ، ٩ : يسر آذرك .

(٥٨) دكتر صفا ، تاريخ ادبيات در ايران ، ج ١ ، ط ٣ ، ص ٣٢ ـ ٣٩ .

(٥٩) نفس المصدر والطبعة ص ٢٠٩ وما بعدها .

ابن اسفنديار : تاريخ طبرستان ، چاپ مرحوم عباس اقبال ، ج ١ ص ١٤٧ وما بعدها .

(٦٠) تاريخ طبرستان ، ج ١ ، ص ٢٢٤ وما بعدها .

تاريخ ادبيات در ايران ، ج ١ چاپ سوم ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ .

(٦١) دكتر صفا : يعقوب بسر ليث ، مجلة آرتش سال ششم .

وابناء اخوته وابناء عمومته ، الى ان سقطت عام ٣٩٣ هـ على يد محمود الغزنوي . ونتج عن ثورة يعقوب تشكيل عدة سلالات ايرانية مستقلة فى انحاء متفرقة من البلاد . ولم يعد للخلفاء فى ايران ــ بعد هذه الثورة ــ سوى الرياسة المعنوية والدينية .

وقد كانت عهود حكم السامانيين والزياريين والبويهيين وامثالهم باعثة على احياء كثير من السنن والعادات والتقاليد الايرانية القديمة ، ومواصلة الكتابة بالفارسية نظما ونثرا ، وترويج العلوم ، واطلاق الحرية للافكار الدينية والآراء الفلسفية .

وفى هذه العهود ظهر عدد من كبار العظماء الذين يعدون مفخرة للعلم والادب فى ايران ، أمثال :

ابو زيد احمد بن سهل البلخي(م ــ٣٢٢هـ)، محمد بن زكريا الرازي (م ــ ٣١٣ هـ) ، علي بن عباس المجوسي الاهوازي (م ــ٣٨٤هـ)، ابو نصر الفارابي (م ــ ٣٣٩ هـ) ، ابو علي مسكويه (م ــ ٤٢١ هـ) ، كوشيا ركيلى ، احمد بن عبد الجليل السجزى (م ــ ٤١٤هـ).

ابو الوفاء البوزجاني (م ــ ٣٨٧ هـ) ، أبو حيان التوحيدي (م ــ ٤٠٠ هـ) ، أبو علي بن سينا (م ــ ٤٢٨ هـ) ، ابو ريحان البيروني (م ــ٤٤٠هـ)، بهمنيار بن مرزبان (م ــ٤٥٨هـ)، الرودكى السمرقندى (م ــ ٣٢٩ هـ) ، الدقيقي (م ــ ٣٦٨ هـ) ، الفردوسي الطوسي (م ــ ٤١١ هـ) ، أبو علي البلعمي ، وغير هؤلاء . (٦٢)

ومنذ أوائل القرن الرابع الهجري وحتى أواسط القرن الخامس ــ وهي الفترة التي كانت فيها ايران خاضعة لسلاطين من اصل ايراني أو نشأوا من بيئة ايرانية ــ كانت السلالات : الصفارية (حتى سنة ٣٩٣هـ) ، والسامانية (حتى سنة ٣٨٩ هـ) ، والزيارية (من ٣١٨هـ فما بعد) ، والبويهية (من ٣٢٠ هـ فما بعد) الغزنوية (من ٣٥١ هـ فما بعد) ، وعدة سلالات اخرى صغيرة مثل الخوارزمشاهيين والامراء الجغانيين وامراء الغور ... تقبض بيدها على زمام الحل والعد فى انحاء البلاد المختلفة .

وقد زالت بعض هذه السلالات اثر حملة التركمانيين السلاجقة ، وبقى بعضها حتى اوائل القرن السابع أو الى ما بعد ذلك . (٦٣)

وقد رأى كل هؤلاء الامراء ــ صغارهم وكبارهم ــ فى تشجيعهم العلماء والكتاب والشعراء فريضة تنبع من همتهم ، فسعوا

---

(٦٢) دكتر صفا : تاريخ علوم عقلى در تمدن اسلامى ، ج ١ ط ٢ ، ص ١٦٥ ، ١٦٩ ــ ١٩٤ ، ١٩٨ ــ ٢٠٢ ، ٢٠٦ ــ ٢٨٧ ، ٢٨٩ ــ ٢٩٠ .

دكتر صفا : تاريخ ادبيات در ايران ، ج ١ ط ٣ ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٢٩٣ ــ ٢٩٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٠٠ ــ ٣٠٢ ، ٣٠٣ ــ ٣١٨ ، ٢٣٣٧ ــ ٣٤٢ ، ٤٥٨ ــ ٥٢١ ، ٤٠٨ ــ ٤١٩ ، ٦١٨ ، ٦١٩ .

حواشى جهار مقالة عروضى ، چاپ مرحوم قزوينى ، ليدن ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣ ، ابن النديم : الفهرست ، طبع مصر ص ٣٩٤ ، جشن نامه ابن سينا تاليف ذبيح الله صفا ج ١ ، معجم الادباء لياقوت ، طبع مصر ج ١٥ ص ٥ ــ ٥٢ .

شرح احوال وآثار رودكى ، اقاى سعيد نفيسي ، فى ثلاث مجلدات ،

Aldo Meili, la Science arabe, Laide, p. 108.

(٦٣) لجمع المعلومات عن هذه السلاسل باسرها ، ارجع الى :

تاريخ ادبيات در ايران ج ١ ط ٣ ص ٢٠٧ وما بعدها ، ج ٢ ط ١ ص ٣٨ ــ ٥٥ .

سعيا كبيرا فى سبيل احياء الرسوم القومية ، والمحافظة على آداب السلف ، وتحقيق رفاهية الشعب .. حتى ليمكن القول بأن عهدهم كان عهد رفعة الحضارة الايرانية وسموها ، ورقي العلوم والآداب الاسلامية ونموها .

غير أن كل ارتفاع يعقبه هبوط ، وقد سرى هذا الهبوط الى ايران سريعا ، وذلك منذ أواسط القرن الخامس اثر استيلاء القبائل البربرية والغلمان التابعين لاجناس آسيا الوسطى الهمجية على البلاد وسيطرتهم عليها . واستمر الهبوط ساريا عدة قرون ، وتمخض عن انحطاط مرعب فى حضارة ايران وثقافتها . وبعد انتصار التركمانيين السلاجقة ـ وهم شعبة من شعب الغز ـ نقطة البداية بالنسبة للهبوط والانحطاط . فمع انتصار هذه الطائفة ، وطئت ايران اقدام العديد من قبائل آسيا الوسطى المنتمين للجنس الاصفر ، وهم يعرفون لدى المؤرخين والكتاب والشعراء من أصحاب اللسانين باسم (الترك) . وهكذا وطئت ايران اقدام القرلق والقراغز والقفجق والقراخان والقراخطا ، واجتمع اليهم حشد لا حد له من المهاجرين والغلمان ممن ينتمون الى القبائل الصفراء التي تسكن آسيا الوسطى . (٦٤)

ومع سيطرة هذه القبائل وتسلط هؤلاء الغلمان انهار صرح الحرية ، وكسدت سوق العلم والادب ، وعرف الفساد والعطب طريقهما الى البناء الاخلاقي والاجتماعي .

وزاد الطين بلة أن تفشت فى بلاد ايران العامرة الحافلة بالرونق والبهاء مظاهر الخراب والفقر والتشتت والضياع . (٦٥)

ورغم ان هؤلاء القتلة الذين يماثلون الشيطان طباعا كانوا يملكون فى أيديهم القوة والسيطرة فى بعض الاحيان كما يبدو ظاهريا ، فانهم لم يتمكنوا من التحكم فى قلوب الايرانيين وأفئدتهم . ومصداق قولنا ماورد من أقوال كثيرة على لسان المتحدثين فى القرنين الخامس والسادس الهجريين .. اولئك الذين انبرى كل فرد منهم لانتقاد هؤلاء الشياطين بصورة من الصور ، وسب بعضهم هؤلاء الملاعين السفاكين المخربين سبابا فاحشا ، ونعتهم بما لا يليق (٦٦) .

وفى الفترة المحصورة مابين أواسط القرن الخامس الهجرى وأوائل القرن السابع الهجرى .. سيطرت على ايران سلالات من السلاطين والأمراء كانوا ينتمون الى السلاجقة العظام (٤٣١ ـ ٥٥٢ هـ) ، وسلاجقة العراق (٥١١ ـ ٥٩٠ هـ) ، وسلاجقة كرمان (٤٤٢ ـ ٥٨٢ هـ) ، واتابكة العراق وآذربيجان (٥٣١ ـ ٦٢٢ هـ) والاتابكة السلغريين «اتابكة فارس » (٥٤٣ ـ ٦٨٦ هـ) ، والخوارز مشاهيين من آل اتسز (٤٩٠ ـ ٦٤٨ هـ) ، وأمراء الغور ، وآل باوند وأمثالها .

---

(٦٤) لمعرفة كيفية نفوذ القبائل الصفراء من الاورال والالتائيين وسيطرتهم ، وهم الذين عرفوا فى تاريخنا بالترك .. ارجع الى :

تاريخ ادبيات در ايران ، ٢ ط ١ ، ص ٥ ـ ٣٧ ، ٦٨ ـ ٩٤ .

(٦٥) نفس المرجع ، ج ٢ ط ١ ، ص ٩٤ ـ ١٣٥ .

(٦٦) للحصول على نماذج من هذه الاقوال .. ارجع الى :

نفس المرجع ، ص ١٢٤ ـ ١٣٠ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ـ ١١٧ .

(٦٧) للاطلاع وتحصيل المعلومات عن هذه الاسر ، ارجع الى :

نفس المرجع ، ص ٥٩ ـ ٦٧ .

ومع أن معظم هذه السلالات ليست من أصل إيراني .. الا أنها سرعان ما تأقلمت وخضعت للثقافة والحضارة الايرانية ، نتيجة للتأثر بالوزراء والكتاب وكبار رجال البلاط ممن كانوا يختارون عادة من بين أبناء البيوتات الايرانية المعروفة ، ومن ثم قامت بتعميم هذه الثقافة وترويج تلك الحضارة .

والحق أن بعض الاسر الايرانية الكبيرة التي واكبت ذلك العهد ، امثال : آل برهان ، آل صاعد ، آل عمران ، الاسرة المنيعية ، والاسرة النظامية ونظائرها .. كان لها حكم العصب الذى يربط نظام حضارة ايران وثقافتها ، وقد ساهمت كل منها مساهمة فعالة فى تربية الفضلاء والكتاب والشعراء .

وبعد هزيمة محمد خوارزمشاه المخجلة امام جنكيز ، وعلى اثر غارات المغول والتاتار ، التي بدأت فى عام ٦١٦ هـ ـ تفشت فى ايران الفوغائية من قتل ونهب وسلب وتخريب . وتعدهذه المصيبة من أكبر المصائب التي يمكننا ان نصادفها في تاريخ الربع المسكون ، خاصة اذا عرفنا انه على اثرها قد شبت ثورات عنيفة متوالية ، ووقعت في البلاد اتفاقيات مخيفة . وقد توجت هذه الاحداث فى النهاية بحملة تيمور شارب الدماء .. تلك الحملة التي قادها ضد البلاد في عام ٧٨٢ هـ .

وبالرغم من أن خلفاء تيمور ـ الذين حكموا ايران الى عام ٩٠٧ هـ ـ كانوا عاجزين عن تركيز قواهم فى البلاد وتوطيد الأمن والامان فيها .. الا انهم حققوا نجاحا وتوفيقا كبيرين فى ميدان تربية الشعراء والادباء والفنانين .

وعلى وجه العموم .. فان الحوادث الرهيبة التي كانت تحدث فى ايران فيما بين عامى ٦١٦ هـ ، ٩٠٧ هـ كان لها حكم الضربات المتوالية على جسد ايران الخالي من الحياة .

ويحلول عام ٩٠٧ هـ وجلوس الشاه اسماعيل الصفوى على العرش تغير الوضع وتبدل الحال .

ويمكن القول بأنه نتيجة لتلك الاحداث التى وقعت على مدى ٣ قرون متوالية ضاع تراث ايران القديم ، وذهبت حضارتها العريقة ادراج الرياح ، ولحقها الفناء والعدم ، وبلغ انحطاطها منتهاه .

ولولا ظهور عدد من المفكرين فى هذه الحقبة الزمنية الطويلة ، ممن عاشوا قبل دخول المغول او تربوا على يد من تبقوا عن الازمنة السابقة على عهد هؤلاء الغزاة ، لبدت بلادنا فى صورة سجن أسود يضم بين جدرانه المخيفة هيكل الجهل والانحطاط والفساد .

ولم يكن يتوقع من أى شعب مهما بلغت قوته ان يتحمل تلك النكبات وان يملك القدرة على الصمود فى وجهها .. تلك النكبات التي حلت بالبلاد مع أواخر القرن الخامس الهجرى ، وزايلتها في أول القرن العاشر .

لقد زالت كثير من الشعوب الكبيرة من الوجود نتيجة غارة واحدة من هذا اللون من الغارات الوحشية البربرية ، وبقي شعب ايران صامدا .

وفي العصر الصفوى ـ ذلك العصر الهام الذى يستغرق الفترة مابين عامى ٩٠٧ هـ ، ١١٤٨ هـ ـ استعادت الامبراطورية الايرانية عظمتها السابقة . فمنذ زوال الدولة الساسانية والاحداث تتوالي فى ايران ، والشعب الايرانى وسلاسل الأمراء والسلاطين الايرانيين لايكف صغيرهم ولا يتوانى كبيرهم عن بذل كل جهد ممكن لاعادة كمال النظم التى كانت سائدة في العصر الساسانى . لقد سعى الجميع جاهدين ولمدة تناهز التسعة قرون ، الى ان ظهر الشاه اسماعيل ـ أحد نوابغ التاريخ الايرانى ـ فكلل هذه الجهود وتلك المساعى بالنجاح ، ومن

يومها بلغت بلاد ايران المستقلة حدودها الطبيعية .

هذا ، وتتشابه الامبراطورية الصفوية الساسانية فى كثير من النواحى .. خاصة فى فرضها مذهبا خاصا وجعله مذهبا رسميا للدولة ، وفى سيطرة الدولة المركزية على حدود فلاة ايران وثغورها الطبيعية ، وفى ايجاد حكومة مستقلة مركزية وازالة ملوك الطوائف، وفى تشجيع التجارة والزراعة والصناعة والفن فى البلاد، وفي الاهتمام بانشاء الابنية والعمارات ونشر العمران ، وفي الصمود فى وجه الطامعين في ايران .. ممن كانوا يغيرون عليها من الشرق والغرب .. وامثال ذلك .

وهكذا يجب أن يكون مقبولا ـ على ضوء ما ذكرنا ـ ان ايران الصفوية اكثر من غيرها مشابهة لايران السياسية فى كثير من الجوانب.

ومن المسلم به أن التقدم السريع امر لايمكن تحققه بالصورة التى يتوقعها معاصرونا، خاصة وأن من يتوقع منهم ذلك كانوا أناسا يرزحون تحت نير انحطاط استمر مئات السنين .

ومن أهم الحوادث السياسية التى تستحق التسجيل والتى وقعت فى ايران بعد زوال الدولة الصفوية .. ظهور « نادر شاه » ، وتشكيل الدولة الافشارية (ابتداء من عام ١١٤٨ هـ) ، وثورة كريمخان زند واقامة الدولة الزندية (من عام ١١٧٢ هـ)، وتأسيس الدولة القاجارية على يد آقا محمد خان (من عام ١١٩٣ هـ) وتشكيل وزارة ميرزا تقى خان الامير الكبير (من ١٢٦٤ هـ حتى ١٢٦٨هـ) واعلان الحياة النيابية فى عام ١٣٢٤ هـ . ق ، واقامة أول دورة لمجلس النواب الايرانى فى نفس العام ، والانقلاب الذى قام به رضا شاه الكبير فى عام ١٢٩٠ هـ . ش ، وانقراض السلسلة القاجارية ، وتشكيل السلسلة البهلوية المصلحة الساعية نحو الرقى (في عام ١٣٠٤ هـ.ش) .

* * *